

صَيِّقُورِيَّةٌ عَبْدُ الرَّحْمَنِ الدَّاحِل

تأليف :

عبادة عبد الرحمن كيلة

تقديم :

محمد عبد الفنى حسن

دار
النكاتب
العربي
للطباعة
والنشر

مارس ١٩٦٨

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر

تقدم من الكتب الجديدة

ماذا يبقى منهم للتاريخ

بقلم : صلاح عبد الصبور

دراسة نقدية تتناول حياة وأعمال : طه حسين والحكيم والعقاد والمازني
بمنهج جديد يبرز ما قد سوه من إضافات إلى الفكر العربي

٣٥

مع الشعراء أصحاب الحرف

بقلم : عبد المليم القباني

ترجمة حية لثقة من الشعراء العرب أصحاب الحرف ، تغطي صورة
مشرقة لهذه الطائفة التي كانت تناضل لتعيش وتفكر وتنفذ

تطلب من الشركة إقليمية للتوزيع ومكتباتها في

صَبْرُ قُرَيْشٍ

عَبْدُ الرَّحْمَنِ الدَّاهِلِ

تأليف :

عبادة عبد الرحمن كيلة

تقديم :

محمد عبد الغني حسن

تقديم

X-----X

بقلم : الأستاذ محمد عبد الفنى حسن

ما كنت أحب أن يتولى تقديم هذا الكتاب أحد غير مؤلفه ، فهو أدرى بكتابته ، وأدرى بالجهد الذى بذله فيه ، وبالقرائات الكثيرة التى رجع إليها فى مصادر ومراجع عربية وغير عربية ، ليستقيم له من ذلك كله دراسة متكاملة لشخصية عبد الرحمن بن معاوية بن هشام الذى طوحت به همته البعيدة من أرض أسرته ودولة آبائه الأمويين بالشام ، إلى أرض الأندلس ، حيث نقل ملك الأمويين من الشرق إلى الغرب ، وكان أول مؤسس للدولة بنى أمية بالأندلس .

وإذا لم يكن مؤلف هذا الكتاب سابقة قدم فى التأليف تجيز له تقديم كتابه البكر هذا دون حاجة إلى التماس المقدمات ، فإن كتابه هذا - فى الحق - يعد تقديمًا كريمًا واعيًا لما نرجوه بعد ذلك منه من دراسات لشخصيات تاريخية عربية كان حظها من التأليف عنها دون حظها من العمل العظيم الذى قامت به .

وعبد الرحمن بن معاوية بن هشام ، أو عبد الرحمن الداخل ، أو صقر قريش هو من الشخصيات العربية التى ضن عليها كتاب السير والتراجم - على مدار اثنى عشر قرنًا - بدراسة خاصة ، أو ترجمة مستقلة فى كتاب قائم بذاته ، إلا ما كان من تلك السيرة الدقيقة التحليلية البارة التى أخرجها الأستاذ على أدهم منصف أكثر من ربع قرن ، واجعلتها مجلة المقتطف - نضر الله أيامها

الدواهب - . هدية الى قرائها ، فكانت من كتب التراجم القليلة
التي ألقت على الشخصية التي تدرسها ، وعلى العصر المحيط
بها أضواء كاشفة . كان قراء التاريخ الأندلسي في حاجة اليها .

فان العصر الذي مهد لمجيء صقر قريش الى الأندلس كان
عصرا حافلا بالخلافات ، مشغولا بالنزعات والعصبية ، مملوءا
بالاضطرابات . وكان تناقض الأخبار فيه مما لا يدع للاطمئنان سبيلا
الى قلب القارئ ، وكان تقلب الأهواء والآراء والأشخاص فيه
مما يقع معه القارئ في حيرة وبلبلة . فلما جاء الأستاذ على أدهم
بكتابه ، وضح معالم الطريق بما جعل من تلك الحقبة المظلمة
المضطربة حقبة مكشوفة المعالم ، واضحة السمات .

وعلى ضوء الدراسة الجادة الوحيدة التي اتحف بها الأستاذ
على أدهم أدب التراجم فيما يتصل بشخصية عبد الرحمن الداخل
وحياته ، جاء الأديب المجتهد ، المعنى بتاريخ العرب والإسلام ،
الأستاذ عبادة عبد الرحمن كحيلة ، فأحب أن لا تكون دراسة
الأستاذ على أدهم يتيمة في المكتبة العربية ، فأنس وحدثها بكتابه
هذا الذي كان من حظي أن أقدمه اليوم في هذه السطور .

والحق ان ثمانية وعشرين عاما ، منذ صدور دراسة الأستاذ
على أدهم لحياة عبد الرحمن الداخل ، قد أمدت الميدان بطائفة
من المراجع ، وأضافت طائفة من البحوث ، أفاد منها الأستاذ
عبادة كحيلة أفادة تامة فلم يفقل ما ظهر أثر ذلك من دراسات ،
ولم يدع مصدرا كتب عن صقر قريش الا رجع اليه ، وأخذ منه ،
واستأنس به ، حتى بلغ مجموع مراجعه بضعة وأربعين مرجعا . .

وماذا تفيد كثرة المراجع - أو التكثر منها - اذا لم يكن
المؤلف قد قرأها قراءة واعية ، وقابل بين نصوصها في الحادث
الواحد ، ووقف على رأى أصحابها ومتجههم في الحكم ؟؟ وهذا

ما يبدو واضحا فيما كتبه الأستاذ عبادة هنا . فأنا مطمئن الى انه لم يكن ناقلا وحسب ، ولكنه كان باحثا ، ومستنبطا حسن الاستنباط ، ومعتمدا لأرجح الروايات التى تنفى - فى نظر التقدير التاريخى السليم كل مالا يرتفع الى قدرها من الروايات ، ومناقشا ومناقضا لكبار المؤرخين وعلى رأسهم دوزى ، كما يبدو فى غير موضع .

ولا أدري - مع هذا التحقيق فى انتقاء الرواية - كيف تغلبه - بعض الحين - بعض الروايات غير المحققة علميا ، فيهورى الى ايرادها ، لاعتبارات تتنافى مع العلم ، كشهرتها أو كثرة ترددها فى كتب التاريخ ، كما فعل فى أواخر الفصل الثانى من هذا الكتاب . ولعل المؤلف هنا قد استهوته غرابة الشخصية التى يترجم لها ويؤرخ حياتها . فانساق الى ايراد أغرب الروايات ولو كانت متجافية مع أصول المنهج ، وقواعد العلم .

والحق أن شخصية عبد الرحمن الداخل مما يفرض بأن تحاك حولها الأساطير ، ولكن الوقائع والحقائق التى أحاطت بالرجل كانت أكثر صدقا من أن تكون منسجما لأسطورة . . . فقد كان كبير النفس ، كبير العقل ، ضابطا لنفسه ، ولا أدل على كبر عقله من أنه قدم اليه ساعة نزوله من البحر الى أرض الأندلس بعض الخمر ، ليسترد بها ما أضاعته أهوال الرحلة من نشاط وراحة ، فرفض الخمر قائلا لمن قدموها اليه : (انى محتاج الى ما يريد فى عقلى ، لا الى ما ينقصه) .

وعلى الرغم من هذه الملاحظة وأشباهاها على هذا الكتاب الجديد المفيد فإن ما فيه من حسنات التحقيق ، والتعمق ، وتوضيح ملامح العصر ، وضبط الأعلام الفرنجية الكثيرة وإيراد مقابله بالحروف الأوربية ، يجعل منه إضافة مفيدة الى ما سبق عن «صقر قریش» من دراسات وإشارات .

ولعل الأستاذ عبادة كحيلة - وقد دخل أرض الأندلس ببحوته
ودراسته - يجعل من هذا الميدان العربى الاسلامى القليل الطراق
مجالا لجهوده التاريخية الموفقة .

وأظنه - بل أراه - فاعلا ان شاء الله .

محمد عبد الفنى حسن

مقدمة

X-----X

بسم الله الرحمن الرحيم

شخصية فريدة قديرة مستنيرة ، هذا جماع ما يمكن ان يطلق على فتى أمية الذى نحن بصدد الحديث عنه ، هو ابن عصره وهو ابن جميع العصور لا يجب أن يغفله المؤرخ فى تاريخه والأديب فى أدبه والعالم فى علمه ، أو من الممكن أن نقول ان عبد الرحمن شخصية نموذجية ، تحتاج الى تحليل وتفسير من جوانب شتى . ومن عجب أن عبد الرحمن هذا رغم شهرته لم يحظ بالعناية اللازمة من جانب الكتاب المعاصرين ، بل ربما كان موسى بن نصير أو طارق بن زياد أشهر بكثير ، مع ان له من صفات القيادة والريادة ما يجعله نديدا لأبى جعفر المنصور وشارلمان ، وهما أكبر رجال عصره وربما جاء هذا الاغفال لأن الاهتمام بالأندلسيات وما يتفرع عنها من تاريخ وأدب نشأ متأخرا ، وربما أيضا لأن بنى أمية ذوو تاريخ يمس أوتارا حساسة عند المسلمين أو لاعتقاد البعض أن الدولة الاموية ماتت بموت مروان بن محمد آخر خلفائها فى المشرق . ولا أظن أن ما كتب عن عبد الرحمن فى السنوات الثلاثين الماضية يعدو ثلاثة كتب ، واحدا فى أدب الترجمة للأستاذ على أدهم ، والآخر فى قالب الرواية للأستاذ كرم ملحم كرم ، والآخر فى باب المسرحية للأستاذ محمود تيمور .

وقد أفادت هذه الكتب الثلاثة فى توضيح الصورة العامة لعبد الرحمن ، رغم قلة المراجع وغموض الشخصية وتناقض

الآراء ازاءها ، أو قل هي محاولات رائدة في هذا السبيل كانت لها انجازاتها الموقفة .

ولا يخفى انحياز كاتب هذه السطور الى كتاب الأستاذ على أدهم ، فهو كاتب تراجم قدير ، جمع في كتابه بين الحقيقة التاريخية والحبكة الروائية مع تحليل وافر للشخصية ، أما كرم ملحم فانه لم يستفد من كل الخطوط الدرامية في حياة عبد الرحمن وهي حياة حافلة بالأحداث ، كما أن مسرحية تيمور ليست أروع أعماله الأدبية .

وعلى الرغم من التوفيقات التي توصل اليها هؤلاء الكتاب في تناولهم لحياة بطل كعبد الرحمن ، فإن هذا لا يمنع جيلا جديدا من الكتاب من الخوض في هذا الموضوع ، فقد يضيف شيئا أو يصحح فكرة أو يعرض رأيا ، خاصة بعد الاهتمام الحديث بالأندلسيات وظهور الكتب الضافية عنها في الشرق والغرب .

اذن فقد كان ذلك سببا في أن المؤلف حاول أن يشارك في الترجمة لعبد الرحمن ، وكان السبب الآخر والأهم في تقديره هو إعجابه بعبد الرحمن .

هذا . . . وليس من قبيل الصدف ان كان منهجنا في هذا الكتاب متفقا مع من سبقنا في أشياء ومختلفا عنهم في أشياء أخرى . فقد أولينا اهتماما كبيرا للعنصر التاريخي في شخصية عبد الرحمن ، باعتباره مؤسس الدولة الأموية في الأندلس ، وما يتبع ذلك من تنقيب في بطون الكتب قديمة وحديثة قدر الاستطاعة ، كما لم نغفل العنصر الدرامي فيه ، وهذا ما جعل الكتاب أشبه بقصة تاريخية طويلة متعددة الأحداث والأجواء والمناظر .

ويقف الى جانب هذين الخطين خط ثالث ، وهو خط الترجمة الأدبية وما يتبعه من محاولة لتحليل الجوانب الظاهرة والغامضة

في حياة عبد الرحمن ، وهذا ما يتضح بصفة خاصة في الفصل
الأخير من الكتاب .

وبعد .. فإنا نكتفي بالمقدمة الى هذا الحد ، ونرجو ألا نكون
قد أطلنا على القارئ فيما يجده بالتفصيل خلال الكتاب ...
فلندعه وإياه .

عبادة عبد الرحمن رضا كحيلة

الفصل الأول

×

خريف أمية

ميلاد بطل - نبوءة مسلمة بن عبد الملك -
سماة القوطية - ثورات الشيعة -
عبد الرحمن في صباه - تدهور أمر
الأمويين - العباسيون يتزعمون الثورة -
الصراع بين نصر بن سيار وأبي مسلم
الخراساني - معركة الزاب سنة ١٣٢
ونهاية الدولة الأموية .

((دعه يا أمير المؤمنين . .
هذا صاحب بنى أمية ووزرهم
عند زوال ملكهم فاستوص به
خيرا)) .

مسلمة بن عبد الملك

×————×

في يوم لا يذكره ذاكر (١) ، والعصر عصر هشام (٢) ، خرج الى
الدنيا ذلك الصغير العزيز ، وكان والده سييدا من سادات أمية ،
قضى زهرة شبابه في جهاد علوج الروم بين طعن القنا وخبط
الرماح . وكانت والدته أم ولد بربرية ، ولا نعرف كيف التقت راح
— وهذا اسمها — بمعاوية بن هشام والد ذلك المولود الميمون
الطالع ، غير أنها كانت من سبي بربر نفزة ، وقد أوقع بهم العرب
واقعات .

ولد هذا الصغير يدير حنا من أعمال دمشق أو بالعلواء من أرض
تدمر فتلقفته عناية من الأفئدة والعيون ومن الصغير والكبير ، لا يرد
له طلب ، ولا يمنع عندما يريد ، ولم يجد من الجميع غير بسمة

(١) سنة ١١٣ .

(٢) هشام بن عبد الملك بن مروان ١٠٥ - ١٢٥ هـ

هادئة ونظرة حانية وود لا يغيب ، ولكن الحياة لا تسير في طريق واحد ولا في سبيل مستمر ، فان الأب الشاب الذي لم تنله سيوف الروم ناله أخيرا ما ينال الجميع ، وشرب من نفس المعين الذي شربت منها قبلا أجيال بنى الانسان . والطبرى وهو الحريص على تتبع غزوات معاوية الشاب نجده يتوقف عند سنة ١١٨ . . وكانت تلك آخر مغازيه ، فقد مات بعد أوبته الى جاضرة الخلافة بقليل .

كان الصبية صفارا فقد مات أبوهم وهو بعد لم يتعد نيفا وعشرين ، وكان حزن جدهم خليفة رسول الله لا يقدر ، فقد كان معاوية من أعز أبنائه على نفسه ومن أقربهم الى فؤاده ، وكان يود أن يجعله ولي عهده لولا ما وعد به أخاه يزيد (١) بأن يستخلف ولده الوليد . ولكن الأب المكلوم لم يجد الا ان يقيم لولده قبرا اجتهد أن يجعله الأول بين أقرانه ، وبه استجار الكميث شاعر آل البيت حين أهدر الخليفة دمه . . فكان نعم الملجأ ونعم الملاذ .

ويقدر ما كان الخليفة عظيما في ملكه عظيما في خلافته ، كان عظيما أيضا بين أهله وأسرته ، فها هو ذا قد كفل عبد الرحمن الصفيير وأخوته ، وأجرى عليهم الأرزاق ، ووهبهم جميع الأخماس (٢) التي اجتمعت للخلفاء بالأندلس وأقطعهم اياها ووجه لحيازتها من الشام واحدا من سادات العرب . وان عبد الرحمن ليذكر ذلك اليوم الذي دخل فيه وهو صبي على جده ، وكان عنده أخوه مسلمة يحادثه أحاديث الساسة ، فأمر هشام بأن ينحى الصفيير عنهما ، ولكن مسلمة - وكان ثاقب البصيرة نافذ الرأي - خاطب أخاه : « دعه يا أمير المؤمنين » ثم ضمه الى صدره واستطرد :

(١) يزيد بن عبد الملك بن مروان ١٠١ - ١٠٥ هـ

(٢) كان للأسرة الأموية في ذلك الوقت خمس ما يجتمع لدى المسلمين .

مغانم الحرب .

« يا أمير المؤمنين هذا صاحب بنى أمية ووزرهم عند زوال ملكهم
فاستوص به خيرا » .

وانه ليذكر أيضا في صباه أن دخلت عليه وهو بمجلس هشام
سارة القوطية ، وسارة هذه يعرفها عرب الأندلس وبخاصة جيل
الفتح ، وكان أبوها وأعمامها سلالة ملوك القوط الذين حالفوا
العرب الفاتحين ضد من اغتصب ملكهم ، فسهلوا أمر الفتح ويسروا
سبيله ، وعندما خلص الأندلس للعرب أجازوهم ضياعهم الفسيحة
التي ضاعت منهم وزادوا عليها . وبعد سنين مات أبوها فوضع
عمها أرطباس Artevasdes يديه على أملاكه وحرّم أولاد أخيه
منها ، فتوجهت سارة مع أخوين صغيرين لها إلى الشام ، وسعت
حتى نزلت بباب هشام ، وانتهت إليه بخبرها والعهد المنعقد لأبيها
على الوليد بن عبد الملك (١) ، وتظلمت إليه من عمها ، فأعجب
هشام بقولها وقضى لها حاجتها وأنصف قضيتها . . . وقبل أن
تغادر مجلسه لمحت عبد الرحمن وهو لا يزال صبيا صغيرا بين
يدى جده وكان في عينيها بريق استغربه عبد الرحمن وتفكر ما هو ،
ربما لأنها سوف تلقاه بعد وفي مكان بعيد لم يكن ليتصوره الآن وهو
يدير مدارج الطفولة ، ولربما عاشت سارة حتى ذلك الحين . .
وعاشت وسرى .

لم تكن أيام هذا الصغير كلها سعادة وهناء ودعة ، ذلك
لأن هشاما كان آخر من سلك طريق المجد من بنى أمية ، وكان
في أواسط العقد السادس من عمره حين التحق بالرفيق الأعلى ،
وبعده اضطرب حبل بنى أمية وتداعت أمورهم وقتل بعضهم بعضا .
يقول الإمام الحافظ عماد الدين أبو الفداء اسماعيل بن كثير
(لما مات هشام بن عبد الملك مات ملك بنى أمية ، وتولى وأدين

(١) الوليد بن عبد الملك بن مروان ٨٦ - ٩٦ هـ .

وفي عهده افتتحت الأندلس . .

أمر الجهاد في سبيل الله ، واضطرب أمرهم وان كانت قد تأخرت أيامهم بعده نحو من سبع سنين ، ولكن في اختلاف وهيج وما زالوا كذلك حتى خرجت عليهم بنو العباس ، فاستلبوهم نعمتهم وملكهم وقتلوا منهم خلقا وسلبوهم الخلافة) .

كانت دولة بني أمية هي دولة العرب ، وكان العرب في العصر الأول - عصر الراشدين والأمويين - هم سادة العالم ، فهم الذين قوضوا عروش قيصر وكسرى ، وامتد سلطانهم من سور الصين حتى كانوا في أحد الأيام يتنزهون على ضفاف الأوار - اللوار - ولم يك ينتظر أحد أن تنتهي دولة بني عبد شمس (١) في حياة رجل مديد العمر ، ذلك أن بني أمية كانوا طوال عمرهم أقوياء عتاة في دولة قوية عاتية ، ترد كيد الزمان وتعاديته إذا كاد أو عدا ، واستمروا على ذلك - إلى أواخر أيامهم التي تنتهي حقيقة بهشام ، ولكن ثمة سياسة اتبعوها منذ عهد معاوية هي التي حملت جرثومة دولة بني العباس ، ولم يحاول خلفاؤه ولا خلفاء خلفائه أن يغيروا من هذه السياسة .

والحديث - لو تكلمنا - يطول ، وكلنا يعرف معاوية ابن أبي سفيان رضي الله عنه ، وهو الذي حمل ميراث عثمان وقميصه الدامي ونادى بثأره واتهم في ذلك خير بني هاشم وأبعدهم عن الشبهة على بن أبي طالب كرم الله وجهه . واندلعت نيران حرب أهلية مريعة استمرت خمس سنوات ، وانتهت بأن اغتيل الإمام بيدى نفر من مراق الخوارج في مسجد الكوفة ، ثم تنازل ولده الأكبر عن الخلافة لمعاوية حقنا للدماء ، ومات الحسن في ظروف مريبة ، وكان زعيم الشيعة بعده هو الحسين بن علي سبط رسول الله وسيد شباب أهل الجنة وكان قد تقم على معاوية أن جعل الخلافة كسروية حين عهد إلى ولده يزيد بالأمر من بعده .

(١) في كتابنا هذا عبد شمس وأمّية ومروان أسماء مترادفة ..

ثار الحسين وكاتبه أهل العراق ، وأعلموه بخلافهم ليزيد ،
فحمل أهله وولده وأولاد أعمامه ومواليه وبعض شباب العرب
الذين لم يرضوا إلا بأن يعود الحق إلى أهله . ولكن يزيد كان عنيفا
وقاسيا حين أرسل الألوف من أصحابه فقتلوا الحسين وصحبه
في كربلاء (١) ، وحمل رأسه إلى ابن مرجانة وهو عبيد الله بن زياد
الدعي ، ثم طيف به حتى وصل إلى دمشق ، واختفى الرأس كما
اختفى الجسد ، ولم يعرف للحسين مقر اتفق عليه الرواة .

لم يقتنع بنو أمية بما جرى من أمور لا يقرها شرع ولا دين ،
وتوالت مقاتل الطالبين فثار زيد بن علي زين العابدين بن الحسين
في نفر من أصحابه ، ولكن جيوش الخلافة اغتالته ، فدفنه أصحابه
في ساقية ماء ، وجعلوا على قبره الحشيش والتراب ، وأجروا الماء
على ذلك ، ولكن القبر لم يختف عن عيون الأعداء ، فاستخرجوه
وبعث بالرأس إلى هشام ، كما صلب الجسد عريانا ، ثم أحرق وذر
رماده ليزوب في الفرات . وفي عهد الوليد بن يزيد خرج يحيى
ابن زيد ، ولكنه غلب على أمره ، وأصابه سهم في صدغه فمات
لساعته ، واحتز رأسه وأرسل إلى الوليد و صلب الجسد ، ثم
أحرق حتى صار رمادا تذرّوه الرياح .

ولكن الأحقاد الكامنة في نفوس بنى هاشم لم تمت ، فقد
انتظروا دورة الزمان ليدوروا هم على هذه الدولة التي ظلمتهم
وضيقت الحق منهم ، وهم الآن وبعد أن وجدوا أن الدولة هي
دولة العرب لم يجدوا إلا أن يتجهوا إلى الموالى يطلبون النصرة
والمعونة ، وقد شايعتهم في ذلك بعض أحزاب العرب وبخاصة من
اليمانية (٢) الحانقين على خلفاء بنى أمية المتأخرين ، كما أيدهم

(١) نظرا لهذا الخطب الجليل فقد فسر البعض الاسم بأنه يجمع بين الكرب
والبلاء .

(٢) أو اليمنية وسوف يتردد ذكرهم كثيرا في هذا الكتاب وهم عرب الجنوب
القحطانيون .

ما جرى بعد هشام بن عبد الملك من اختلال الأمور فقد ثار بنو أمية على الوليد الفاسق (١) بن يزيد عبد الملك الذي جر على تلك الدولة الكثير من النكبات ، وفي أحداث تلك المصيبة قتل الوليد ، وخلفه ابن عمه يزيد (٢) الناقص بن الوليد بن عبد الملك ، ولكن عهده لم يطل فمات بعد شهور قليلة ، وصارت الأمور إلى أخيه إبراهيم فكان الناس - على قول ابن الأثير وغيره - يسلمون عليه البعض بالخلافة والبعض بالامارة ، وناس لا يسلمون عليه بأى منهما . . . ولكن مروان الحمار (٣) بن محمد بن مروان أمير الجزيرة وثب عليه بعد شهرين وأنزله من على كرسي الخلافة ، وجلس مكانه خمس سنوات .

لا نعرف حياة عبد الرحمن أثناء تلك الفتنة ، لكنه على أية حال لم يكن له دخل آنذاك بمباشرة الأمور ، وإنما كان كغيرة من فتيان أمية يتلقى من علوم القرآن والحديث واللغة وأصول الأدب والشعر الشيء الكثير ، كما لا يبعد أنه كان يقضى سحابة يومه في رياضة الخيل واللعب بالسيف والصيد والقنص في نواحي دمشق أو في الرصافة من أرض قنسرين ، حيث كان يعيش جده الحبيب ولكن ذلك لم يستمر طويلا .

كانت رئاسة بني هشام بعد وفاته قد اجتمعت إلى سليمان ابن هشام ، وقد آلت إليه بطبيعة الحال رعاية أولاد أخيه المتوفى ، وكان ذا أطماع واسعة لم يرض عن الوليد بن يزيد ، كما لم يرض عن مروان بن محمد ، فخرج عليه ، ودعا أهل الخلاف من اليمانية وغيرهم ، لكنه انكسر أمام جند مروان ، ودخل أمير الجزيرة دمشق وبايعه الناس وفي جملة من بايعه سليمان ، بيد أنه حين خرج الضحاك ابن قيس الشيباني بالكوفة وانتشر سلطانه حتى الموصل ونصيبين

(١) وللهمة الأعظم بالوليد الزنديق لفجوره وعهده .

(٢) دعى بذلك لأنه أنقض من أعطيات الجند .

(٣) دعى بالحمار لصبره في النضال ضد الفتنة .

شمالا ، انضم اليه سليمان ، فأرسل مروان ابنه عبد الله الى الخوارج ، ثم لحق به وفتك بالضحاك وأشياعه في كفر توثا سنة ١٢٨ هـ ، وأنهزم سليمان لكنه لم يتخل عن عداوته لمروان .

لشد ما كانت الأحزان وهى تترى الى قلب عبد الرحمن حين يرى ويسمع الخطب الذى ألم ببني أمية منذ وفاة هشام ، ولكن ترى كيف كان حاله وهو يشهد مصرع أخيه أمية وكان يكبره قليلا فى حوادث ذلك النضال . فقد وقع الفتى فى أسر مروان فقال : « أنشدك الله والرحم ياعم » ولكن الخليفة القاسى الحازم رد عليه : « ما بينى وبينك اليوم من رحم » وأمر به ، وعمه سليمان وأخوته ينظرون اليه ، فقطعت يداه وضرب عنقه . . . وطوى عبد الرحمن أحزانه فى صدره وصبر على المأساة فهو لم يكن يستطيع شيئا وهو حدث غرير ، واطمأن الى بعض الراحة حين هدأت الفتنة واستقر الأمر لمروان لكنه لم يستقر تماما .

كانت رئاسة الشيعة قد اجتمعت بعد مصرع الحسين الى أخيه محمد وكانت أمه من سبى بنى حنيفة الذين شايعوا مسيلمة الكذاب . وكان محمد ابن الحنفية حكيما حين رأى أن يبتعد عن مباشرة الأمور وقد تمكن بنو أمية من الخلافة .

وخلفه فى الامامة ولده أبو هاشم الذى أوصى بها قبل أن يموت الى محمد بن على بن عبد الله بن العباس ، فانصرف محمد هذا الى بث الدعوة سرا ، خصوصا الى خراسان ، وكان للشيعة فيها أنصار وأتباع . وبقيت الدعوة سرية نيفا وعشرين سنة ، ولم يتم الجهر بها الا بعد وفاة هشام ، ووقوع الفتن والثورات ، التى شارك فى أحداثها أفراد من البيت الأموى نفسه .

استمال أبو مسلم - وكان من رجال خراسان البارزين - قومه وجهر بالدعوة بعد أن كان الدعوة يستخفون فى الزمن الفائت ، واستفحل أمره وزحف الى مرو وهى العاصمة وبها أمير البلاد نصر

ابن سيار الذي لما أحس بدنو الرايات السود أرسل الى مروان هذه
الآيات (١) :

أرى خلل الرماد وميض نار	ويوشك أن يكون لها ضرام
فان النار بالعودين تذكى	وان الحارب أولها كلام
أقول من التعجب ليت شعري	أيقاظ أمية أم نيام
فان كانوا لحينهم نياما	فقل قوموا فقد حان القيام
فقرى عن رحالك ثم قولى	على الاسلام والعرب السلام

وكان مروان فى شغل من ذلك يفتن الخوارج ومن شايهم من
أحزاب العرب ، فكتب اليه : « ان الشاهد يرى ما لا يرى الغائب ،
فقال نصر لما قرأ الكتاب : أما صاحبكم فقد أعلمكم أن لا نصر
عنده » .

لم يمض على ذلك زمن طويل حتى كانت الرايات السود (٢) قد
رفعت على مرو ، وزحف المسودة غربا واكتسحوا فى طريقهم فارس
ومشارف العراق ، عندئذ تنبه مروان للخطر الوافد وأتاه أعوانه
بأن الدعوة لابراهيم الامام بن محمد العباسى فقبض عليه وحبسه
فى حران ثم دس اليه من سمه حتى مات ، فارتحل أهله وفيهم
أبو العباس وأبو جعفر أخواه (٣) الى الكوفة ، والتجأوا الى بيت
أبى سلمة الخلال الذى أخفى أمرهم ، حتى اقتحم أبو مسلم الكوفة
ودخل على بنى العباس وسلم على أبى العباس بالخلافة .

لم يكد يستقر الأمر للسفاح بالكوفة حتى سير عمه عبد الله
ابن على لملاقة مروان ، وقد قدم بمائة وعشرين ألفا من أهل الشام ،
وعلى نهر الزاب الذى يخرج من الدجلة التقى الجمعان ، فتבודلت

(١) تروى هذه الآيات فى كتب الأدب والتاريخ بصور متعددة وما هنا ورد
عن الامامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة .

(٢) وهى شعار العباسيين .

(٣) لقب الأول السفاح ولقب الآخر المنصور .

الكتب ، ولم يجد خليفة بنى أمية من أصحاب الأعلام السود
الا عزمًا وتصميمًا وإرادة . وجمال عبد الله بفرسه جولة ، ثم نظر
الى السماء وخاطب ربه : « يارب حتى متى تقتل فيك » . ونادى :
« يا أهل خراسان : يا ثارات ابراهيم الأمام ، يا محمد ، يا منصور »
وصاح مروان فى أصحابه أن يحملوا فتباطأ من تباطأ وتكاسل من
تكاسل ، وأجمع القوم على نفورهم من القتال ، فلم يجد الرجل
بلدا من أن يخرج الذهب الى الناس عسى أن يفعل المال ما عجز عنه
اللسان ، ولكنهم كانوا يأخذون الذهب ولا يقتلون . فأمر مروان
ابنه عبد الله بأن يتعقب الفرار من القوم بالقتل ، فمال برأيه
وأصحابه ولما رأى الناس الراية راجعة صاحوا : « الهزيمة ...
الهزيمة » فانهزموا وقطع الجسر فكان من غرق يومها أكثر ممن
قتل ، وتفرق الفل فى الأودية يطلبون أمانا لن ينالوه .

كان يوم السبت لحدى عشرة ليلة خلت من جمادى الأولى
سنة ١٣٢ - يوم الزاب - هو نهاية دولة بنى مروان ، فقد أسرع
الخليفة المهزوم يطلب النجاة فى بلاد الشام ، وكان عبد الله بن على
فى أعقابها ، حتى أتى دمشق ثم الأردن ، وجاز الى فلسطين ، وهناك
تولى صالح بن على أمر مطاردته ، واستمر مروان فى طريقه الى
مصر ، حتى أتى الصعيد ولجأ الى قرية على النيل تدعى بوصير ،
واظمان هناك الى أنه ابتعد عن عيون بنى العباس ، ولكن صالحا
كان فى أثره ، وفى اخريات ذى الحجة كان رأسه قد حمل الى
صالح ثم استقر بين راحتي السفاح .

الفصل الثاني

x-----x

الفتى.. والطريق

في أعقاب الزاب - الانتقام من
الأمويين - مصرع سليمان بن هشام -
الأمويون يهربون من تسيوف العباسيين -
عبد الرحمن يستخفي عن عيون العباسيين -
هربه من العراق - قدومه الى افريقية -
تفكيره في الذهاب الى الأندلس .

« . . فخرجت لأنظر ، فاذا
بالروع قد نزل بالقرية ونظرت
فاذا بالرايات السود منحنية ،
وأخ لى حدث السن كان معى
يشتد هاربا » .

عبد الرحمن بن معاوية

×—————×

كان من المؤلم لشاب فى بن عبد الرحمن أن يحتفل ما جرى
فى تلك الآونة الأخيرة من مأس ، وهو بعد لم يتخط عتبة العشرين .
وقد يصعب علينا ونحن بعد اثنى عشر قرنا أن نصف ما كان يموج
فى خاطره من أحاسيس متضاربة ، فلقد كان زوال النعمة التى درج
عليها أمرا أصعب من أن يحتمله أو أن يقبل السير فى سبيل غير
ما عهد .

لا نعرف تماما هل شارك عبد الرحمن فى معركة الزاب التى
أدت الى مصرع الدولة الأموية ، فالمراجع التاريخية لا تحدثنا عن
دوره فى حلبة الصراع بين بنى أمية وبنى هاشم . ولكن لا يبعد أن
يكون لعبد الرحمن ، وهو فتى غض الالهاب جديد الشباب نصيب
وافر فى ذلك ، لما سنراه فى المستقبل من شجاعة فاقت كل وصف
وجازت كل امكان ، ومن عزم لا ينبو وارادة لا تفيب .

ونحن نعرف ان اخوته وبنى عمومته قد شاركوا في المعركة ،
وكان له أخ يقاربه سنا ، ويدعى يحيى يحكى عنه ابن الأثير انه كان
يقاتل يوم الزاب مستقتلا فراغت شجاعته وأبهة الشرف التي تبدو
عليه عبد الله بن علي وجنوده من المسودة ، وكذا كان حال كثير
من بنى مروان .

ضاعت الدولة الأموية ، وتفرق أبناؤها مرقا في أشجات
الأرض ، وظفر صالح بن علي بحرم مروان ، ودخلت عليه بناته .
فتكلمت كبراهن : « يا عم أمير المؤمنين .. حفظ الله من أمرك
ما تحب حفظه ، نحن بناتك وبنات أخيك وابن عمك ، فليسعنا من
عفوك ما وسعكم من جورنا » .

فرد عليها وقد هاجته شجون الماضي : « والله لا أستبقى منكم
أحدا ! ألم يقتل أبوك ابن أخى إبراهيم الامام ؟ . ألم يقتل هشام
ابن عبد الملك زيد بن علي بن الحسين وصلبه بالكوفة ؟ . ألم يقتل
الوليد بن يزيد يحيى بن زيد وصلبه بخراسان ألم يقتل ابن زياد
الدعي مسلم بن عقيل (١) . ألم يقتل يزيد بن معاوية الحسين
ابن علي وأهل بيته .. ألم يخرج بحرم رسول الله صلى الله عليه
وسلم ، فوقفن موقف السبى .. ألم يحمل رأس الحسين وقد قرع
دماغه فما الذى يحملنى اليوم على الإبقاء عليكم » .

فقالت ضارعة : فليسعنا عفوكم .

وسكت القائد المظفر قليلا حتى هدأت نفسه ثم قال : « أما هذا
فنعم ، وان أحببت زوجتك ابنى الفضل » .

فقلت : « وأى عز خير من هذا بل تلحقنا بخران » (٢) .

(١) أين أخى على بن أبى طالب وقد قتله ابن زياد قلدا ابان ثورة الحسين
سنة ٦١ هـ .

(٢) وهى عاصمة الجزيرة وكان مروان حاكمها قبل أن يلى الخلافة .

فحملهن اليها فلما دخلنها ورأين منازل مروان رفعن أصواتهن
بالبكاء .

وإذا كان صالح بن علي كريما مع بنات مروان فان غيره من
بنى العباس لم يكن كذلك ، فهذا أخوه عبد الله - سفاح العصر -
قد أمر بنبش قبور بنى أمية ، فنبش قبر معاوية . وتذكر الرواية
التاريخية أنه لم يجد به سوى خيط يشبه الهباء ، ونبش قبر يزيد
فوجد به حطاما كأنه الرماد ، ونبش قبر عبد الملك فوجد جمجمته ،
الا هشاما ، فانه وجد صحيحا لم يبل منه غير أرنبة أنفه ، فضربه
عبد الله بالسياط وصلبه وحرقه وذرأه في الريح . . وشرع بنو هاشم
يأخذون ثأرهم من بنى عبد شمس .

ولكن قبور بنى أمية لم تكن هي وحدها مطلب بنى هاشم ،
فها هو ذا أبو العباس السفاح (١) قد أتاه رأس مروان - وكان
بالكوفة يومذاك - فلما رآه سجد ثم رفع رأسه وخاطب رأس مروان
وكأنه لا يزال يتنفس : « الحمد لله الذي أظهرني عليك وأظفرني بك
ولم يبق ثأري قبلك وقبل قومك أعداء الدين » وتمثل قائلا :

لو يشربون دمي لم يرو شاربهم ولا دماءهم للفيظ ترويني
وها هو ذا سليمان بن هشام ، وكان على خصام مع مروان قد
أمنه أبو العباس وأتى إليه الآن وهو بمجلسه ، وبينما هو كذلك
اذ دخل عليه سديف بن ميمون الشاعر ولم يعجبه ما رأى فأنشأ
يخاطب السفاح :

لا يفرنك ما ترى من رجس

أن تحت الضلوع داء دوى

(١) السفاح لقب أطلق على أبى العباس أول الخلفاء العباسيين وهو غير
عبد الله بن علي الذي أطلق عليه لقب السفاح أيضا لانه كان كذلك .

فضع السيف وارفع السوط حتى
لا ترى فوق ظهرها أمويا

فانتبه سليمان وقال لسديف : « قتلتنى يا شيخ » ولم يلبث
أن لحق سليمان بمروان .. ربما ليواصل خلافهما فى السموات
العاليات :

ونرى عبد الله بن على وعنده جماعة من خيار بنى أمية زادوا
على السبعين وهم على الطعام ، ثم دخل عليه شبل بن عبد الله مولى
بنى هاشم وقال :

أصبح الملك ثابت الأساس	بالبهاليل (١) من بنى العباس
طلبوا وتر هاشم فشقوها	بعد ميل من الزمان وباس
لا تقيلن عبد شمس عثارا	واقطعن كل رقلة (٢) وغراس
ذلها أظهر التودد منها	وبها منكم كحز المواسى
ولقد غاظنى وغاز سوائى	قربهم من نمارق وكراسى
انزلوها بحيث أنزلها الله	بدار الهوان والاعتاس
واذكروا مصرع الحسين وزيدا	وقتيلا بجانب المهراس (٣)
والقتيل الذى بحران أضحي	ثاويا بين غربة وتناس

وتقول الرواية التاريخية ان عبد الله أمر بهم فضربوا بالعمد
حتى قتلوا ، وبسط عليهم الأنطاع ، فأكل الطعام وهو يسمع أنين
بعضهم حتى ماتوا .

ولم يلبث أن اندفع العباسيون يفتالون من وقع فى أيديهم
بأمان أو بغيره ، فسفك عبد الله بن على دماء العشرات منهم بنهر
أبى فطرس ، كما أخذ أخوه داود من كان بمكة والمدينة منهم بالقتل ،

(١) المقدمون من القوم .

(٢) شجيرة .

(٣) آلة للتروس .

فراح ضحية هذا الغضب الدامى عصابة بنى أمية وخيارهم ، منهم محمد بن عبد الملك بن مروان ، وسعيد بن عبد الملك بن مروان ، وأبو عبيدة بن الوليد بن عبد الملك ، وعبد الواحد بن سليمان ابن عبد الملك ، والفهر بن يزيد بن عبد الملك ، كما حشر في زمرتهم ابراهيم المخلوع بن الوليد بن عبد الملك وانتهبت قصور بنى مروان ومنازل عزهم ، وبطش العباسيون بكل من مانعهم ، فهذه الأميرة عبدة بنت هشام سألوها عن كنوز وجوهر فلم ترد عليهم فذبحوها ذبح النعاج ، لم يراعوا عهدا ولا رحما ولا دينا .

وكان نصيب عبد الرحمن من ذلك العهد الأسود الكثير من الأسى ، فقد فقد أخا ثانيا غير أخيه الذى فقدته في الصراع مع مروان ، فان أبان بن معاوية أشجع فتيان أمية قد قطعت يده ورجله ، وطيف به في كور الشام ، ونادى القتلة المظفرون على رأسه : هذا أبان بن معاوية فارس بنى أمية ، واستمروا كذلك والفتى يحتمل العذاب والمهانة المرة تلو الأخرى حتى مات . ولكن الزمان لم يرض إلا أن يتتبع أولاد معاوية بن هشام الواحد فالواحد ذلك ان يحيى بن معاوية وكان ساكنا في قرية صغيرة قرب مكان عسكر فيه صالح بن على ، وكان قد أمن البقية الباقية من بنى أمية فأقبلوا ، وتوجس يحيى الخطر ، فبعث رسولا ينظر ما يكون ، فوافق القوم يقتلون ، فرجع مسرعا الى سيده ، ولكن يحيى لم يتفق له هرب حتى قربت الخيل فغشى وقتل .

ولم يبق أمام بنى أمية بعد أن بان غدر بنى العباس إلا أن يطلبوا الهرب حيث أوسعهم الله من أرضه ، وكان عبد الله وعبيد الله ابنا مروان بن محمد رائدى بنى أمية في ذلك ، فقد لحقا بأرض الحبشة بعد مصرع أبيهما ، فلقيا عناء شديدا من الأحباش وقتل عبيد الله ونجا عبد الله في عدة ممن معه فبقى الى خلافة المهدي . كما نزع الى المغرب جزى بن عبد العزيز بن مروان ، وعبد الملك بن عمر بن مروان ، وفي أثرهما قدم العاصي وموسى

أبنا الوليد بن يزيد وحبيب بن عبد الملك بن عمر بن الوليد
ابن عبد الملك ، وغيرهم كثيرون .

ونعود الى عبد الرحمن ، فانه بعد أن رأى ما رأى وسمع
ما سمع لم يجد الا أن يستخفى عن عيون العباسيين حيناً في
قرية صغيرة على الفرات ذات شجر وغيابض ، وكان يجلس كثيراً
يتفكر في الأحوال التي طرات عليه في الآونة الأخيرة ، وتسرح
أمام ناظريه الآمال العظيمة التي تنبأ بها مسلمة بن عبد الملك . .
ولكن هدوءه لم يستمر طويلاً ، ولندعه يروى لنا الرواية التالية :

« انى لجالس يوماً في تلك القرية في ظلمة بيت تواريت فيه
لرمد كان بى ، وابنى سليمان بكر ولدى يلعب قدامى وهو يومئذ
ابن أربع سنين أو نحوها ، اذ دخل الصبى من باب البيت فزعا
باكياً ، فأهوى الى حجرى فجعلت أدفعه وهو دهش (١) يقول
ما يقوله الصبيان عند الفزع ، فخرجت لأنظر فاذا بالروع قد نزل
بالقرية ، ونظرت فاذا بالرايات السود منحنة وأخ لى حدث السن
كان معى يشتد هارباً ويقول لى : النجاة يا أخى فهذه رايات
المسودة . فضربت بيدي على دنائير تناولتها ، ونجوت بنفسى
والصبى أخى معى ، وأعلمت أخواتى بمتوجهى ومكان مقتصدى ،
وأمرتھن أن يلحقننى ومولای بدر معھن . . وخرجت فكملت فى
موضع ناء عن القرية ، فما كان الا ساعة حتى أقبلت الخيل فأحاطت
بالدار فلم تجد أثراً ومضيت ولحقنى بدر ، فأتيت رجلاً من معارفى
فى شط الفرات ، فأمرته أن يبتاع لى دواب وما يصلح لسفرى ،
فدل على عبد سؤله العامل ، فما راعنا الا جليلة الخيل تحفزنا
فاشتدنا فى الهرب فسبقناھا الى الفرات فرمينا فيه بأنفسنا
والخيل تناديننا من الشط : ارجعوا لا بأس عليكما ، فسبحت حاملاً
نفسى وكنت أحسن السبح ، وسبح الغلام أخى ، فلما قطعنا نصف

(١) حائر مضطرب .

الفرات قعد أخى ووهن ، فالتفت اليه لأقوى من قلبه .. واذا هو
قد أصغى اليهم وهم يخدعونه عن نفسه ، فناديته : تقتل يا أخى ..
الى .. الى . فلم يسمعنى ، واذا هو قد اغتر بأمانهم وخشى
الفرق ، فاستعجل الانقلاب نحوهم ، وقطعت أنا الفرات وبعضهم
قد هم بالتجسرد للسباحة فى أثرى فاستكفه أصحابه عن ذلك ،
فتركونى ثم قدموا الصبى أخى الذى صار اليهم بالأمان ، فضربوا
عنقه ونصبوا رأسه ، وأنا انظر اليه وهو ابن ثلاث عشرة ، فاحتملت
فيه ثكلا ملأنى مخافة ، ومضيت الى وجهى أحسب انى طائر وأنا ساع
على قدمى ، فلجأت الى غيضة أشبة (١) فتواريت فيها حتى انقطع
الطلب ، ثم خرجت هاربا أروم المغرب حتى وصلت الى افريقية .

أشرف عبد الرحمن على الشام حيث بيضة بنى أمية ومستقر
عصبيتهم وقومهم ، ولكن الزمان قد تغير قبالأمس كان يخرج من
هنا أشاوس أهل الشام يرفعون لواء أمية فى الأمصار ، ويضربون
على أيدي العصاة ، ويوغلون فى بلاد الكفار ، ولكننا نرى اليوم عزائم
فلت وآملا ضاعت وقلوبا تكبت ، وقد شمل الجميع الخوف من
المسودة .. اذن فليس للفتى مقام فى بلاد الشام .. فأين يتوجه ؟ !
وهو بعد لم يسترح من عناء الطريق ، ولا يزال التراب يعلق بجيبته
ويضمخ أجزاء من بدنه .

اجتاز عبد الرحمن الشام وفى قلبه حسرة وفى نفسه شجون
وقلق ، ولعله قد مر على الرصافة حيث ملعب صباه ومسرح لهوه ،
وجاهد فى صبر كى يبتعد عن ماضيه الجميل ، ولكنه أفاق حين
أشرف على مصر ، ولربما جال بخاطره أن يستقر بها فقد استخفى
فيها الكثير من بنى مروان وأشياع بنى مروان ومواليهم ، ولكنه عدل
عن ذلك لما تذكر مأساة مروان بن محمد ومصرعه الأليم .

كانت افريقية حين عبر اليها عبد الرحمن قد اجتمعت الى

(١) ذات اشجار كثيرة ملتفة يصعب المرور فيها .

سميه عبد الرحمن بن حبيب الفهرى سليل عقبة بن نافع فاتح
افريقية وبانى القيروان ، وكان حبيب بن أبى عبيدة (١) والد
عبد الرحمن قد قتل فى ثورة البربر الكبرى على أيام هشام
ابن عبد الملك ، فاجتاز عبد الرحمن الى الأندلس مع الفرار من
القوم ، وطمع فى ملكها ، ولكن مساعيه خابت فكر الى افريقية ،
وانتهز ما جرى فى الشرق آنذاك من الفتنة بعد وفاة هشام ، فتوجه
لقتال حنظلة بن صفوان الكلبى والى افريقية ، وزحف الى
القيروان ، وخاف حنظلة وكان ذا ورع ودين لا يرى القتال الا لأهل
الكفر والخوارج ، فهجر ولايته الى بلاد الشام ، ودخل عبد الرحمن
القيروان فى سنة ١٢٧ ، ولم يجد مروان بن محمد الا أن يعترف
بولايته ، ولما بادت دولة بنى أمية بالشرق أعلن طاعته لبنى العباس
ولبس السواد .

لم يجد الأمويون فى افريقية ما كانوا يصبون اليه فى ملجأ يقيهم
خيل بنى العباس ، لأن ابن حبيب كان مخلصا لسادة العصر
الجديد ، فتتبع الأمويين أينما وجدوا ، وكان ابنا الوليد بن يزيد
ضحية اخلاصه للعباسيين ، وبينما هو كذلك اذ أعلمه عالم
بالحدثان بتغلب القرشى المروانى الذى هو من أبناء ملوك القوم
واسمه عبد الرحمن ووصفه له ، وذكر أنه سوف يملك الأندلس
ويورثها فى عقبه ، فقال ابن حبيب : ويحك هذا هو وأنا قاتله . وكان
هذا الرجل يضمن الولاء لبنى أمية فرد عليه : انك ان قتلتني فما هو
به ولحقك اثمك او غلبت على تركه . . انه لهو ، فان القضاء
لا يغالب (٢) ، فأعرض الأمير عما اعتزمه حيناً ، ولكنه لم يلبث أن
رجع الى رايه الأول ، وجعل جائزة كبيرة لمن يأتى برأس غريمه
ورصد له الأرصاد .

(١) أو أبو عبيدة .

(٢) هذه رواية غير محققة علمياً أوردناها هنا لشهرتها وكثرة ترددها فى
كتب التاريخ .

قضى عبد الرحمن بأفريقية خمس سنوات ، وكان عليه أن يستخفى عن عيون عبد الرحمن بن حبيب ، وكان بدر قد جاءه ومعه نفقة وجوهر من اخته أم الأصبع ، استعان بها عبد الرحمن في التمكن لنفسه بين البربر ، وقد استطاع ذلك فان أمه كانت أم ولد بربرية تدعى راحا أو رداحا من بربر نفرة أو نفزاوة ، وقد تقلب في قبائلهم فحل بزناة ومكناسة ، كما ورد مليلة ومفيلة ، واستخفى عند بنى رستم ملوك تاهرت ، وطوال ترحاله كانت خيل ابن حبيب تتعقبه ، واستمر الفتى كذلك الى أن استقر في نفرة الذين يسكنون قرب سبتة .

كان عبد الرحمن قد بلغ قاصية بلاد المغرب ، وها هو الآن يفكر فيما جرى له في السنوات الأخيرة ، وأخذ يرسم في مخيلته طريق المستقبل .. ولربما فكر أن يقيم لنفسه دولة بأفريقية ، ولكنه لن يفعل ، فليس يبعد أن يتجرد له جيش بنى العباس من الفسطاط فيفتك بدولته وهي في المهد ، ولربما أيضا يخرج عليه البربر الذين ثاروا ثورة عارمة في العشرينيات من القرن ، كما ان البلاد شاسعة واسعة تمتد آلاف الأميال من مصر حتى بحر الظلمات (١) ، فلن يستطيع أن تكون طاعته عامة .. وها هي جزيرة الأندلس أمامه وللروانية هناك انصار وأشباع ، وكانت الجزيرة قد جمعت من الحسن ضروريه ومن الاعتدال فنونه ومن خير الله شيئا كثيرا .. وطرقت الى ذهن عبد الرحمن فكرة .. ان كل ما عليه الآن أن يتعب ، وغدا سوف يحتل مكانه تحت الشمس .

(١) بحر الظلمات هو الاسم العربى القديم للمحيط الاطلسى Atlantic ومن التسميات العبرية الأخرى البحر المحيط الأكبر والبحر الأخضر والأوقيانوس .

الفصل الثالث

x-----x

الأندلس .. بين الغسق والفرق

وصف الأندلس - لمحة من تاريخها
القديم - أيام القوط الأخيرة - اعتسلاء
وذريق عرش إسبانيا - وذريق يقتصب
فلورنדה ابنة الكونت يليان - يليان يعلن
انضمامه الى المسلمين - حملة طريف بن
ملوك - طارق بن زياد يتولى قيادة الفتح -
معركة وادي لكة سنة ٩٢ هـ - المسلمون
يستولون على طليطلة - موسى بن نصير
يلحق بطارق بن زياد - اكتمال فتح
الأندلس - التفكير في غزو أوروبا

« أيها الناس : أين المفر !!
البحر من ورائكم والعسود
أمامكم وليس لكم والله
إلا الصديق والصبر .. » .

طارق بن زياد

X—————X

الأندلس بلد حار في وصفها الأدباء وتغنى بها الشعراء ، فقد
جمعت من الحسن والكمال ما صار مضرب الأمثال ، ويقولون في
ذلك أنها « شامية في طيبتها وهوائها ، يمانية في اعتدالها واستوائها ،
هندية في عطرها وذكائها ، أهوازية في عظم جبايتها ، صينية في
جواهر معادنها ، عدنية في منافع سواحلها . ومن أشهر ما ورد
عنها من أفانين الشعر وبديع البيان ما نظم به ابن خفاجة :

يا أهل أندلس لله دركم ماء وظل وأنهار وأشجار
ماجنة الخلد إلا في دياركم ولو تخيرت هذى كنت أختار

شبه جزيرة في الطرف الآخر من بحر الروم ، كانت تدعى في
الزمن القديم « سبان » Span أي البلاد النائية ، وحين هاجر
إليها اليونان تركوا هذا الاسم الفينيقي ودعوها « هسبيريا »
Hesperia أي البلاد الغربية ، وعنهم أخذ الرومان اسم « هسبانيا »
Hispania . حين فتحهم تلك البلاد زمن هانيبال Hannibal قائد

قرطاجة Carthāgo الشهير ، ثم عرفت في العصور الحديثة بإسبانيا Espana . ولما غزتها قبائل الفندال Vandali المتوحشة في أوائل القرن الخامس بعد المسيح أطلقوا على ذلك السهل الواقع الى الجنوب من الجزيرة وهو « باطقة » Baetica اسم فندالوسيا Vandalusia أو فنداليشسيا Vandalitia ، الذي صار فيما بعد أندالوسيا Andalusia ، وعرف عند العرب بالأندلس ، ثم عمموا تلك التسمية على شبه الجزيرة بأسرها .

وفي خلال القرن الخامس تعرضت أسبانيا لغزو القوط (١) Gothones الذين كانوا قد فتحوا روما منذ قليل ، وطفقوا يتجولون في أنحاء غاليسيا Gallia - فرنسا - زمنا . وتغلب القوط على قبائل البرابرة (٢) التي سبقتهم الى شبه الجزيرة ، كما حالفوا الرومان في نضالهم ضد الهون Huns وزعيمهم الكبير أتيلّا Attila وبلغ القوط أوج مجدهم في عهد أورك Euric الذي حكم في أواخر القرن الخامس ، ثم التحموا مع الفرنجة والروم والبشكنس Les Basques ، ورغم أنهم هزموا في معارك عدة فان شبه الجزيرة أذعنّت في آخر الأمر لطاعتهم . ولربما كان من الجائز أن يستمر حكم القوط سنين عديدة أخرى لولا ان هنالك أمورا أضعفت من سلطانهم في السنين الأخيرة من تاريخهم الطويل .

كان اليهود قد تفرقوا في بلدان البحر الأبيض المتوسط بعد هدم هيكلهم في بيت المقدس ، واستقر عدد منهم في إسبانيا ، وانصرفوا الى التجارة ، وتمكنوا من الحصول على بعض الامتيازات في عهد السيطرة الرومانية ، لكن أوضاعهم لم تلبث أن تغيرت حين

(١) القصود هنا القوط الغربيون Visigoths وهم غير القوط الشرقيين Ostrogoths الذين استقروا بإيطاليا .

(٢) البرابرة Barbarians تسمية تطلق على قبائل الجرمان على اختلافها وغيرها من شعوب أوروبا غير الرومانية .

غزو القوط اسبانيا ، ووقوع الحرب بينهم وبين الروم في عهد
الامبراطور يوستينيانوس ، اذ انضم اليهود الى الروم ابان هذا
النضال ، فوقفت الجفوة بينهم وبين القوط ، زاد منها اعلان
ركاريد Recared الكاثوليكية مذهباً رسمياً للبلاد في سنة ٥٨٧ ،
فقطع بذلك آخر الروابط التي تربط القوط بالامبراطورية الشرقية .

على أن سلوك اليهود بما فيه من حقد وجشع واستعلاء ، الى
جانب ما طبعوا عليه من عزلة وانصراف الى ما فيه تحقيق مصالحهم
الشخصية ، فضلاً عن كراحتهم لدين السيد المسيح ، كان العامل
الأهم في انقلاب القوط عليهم .

وبدأت سلسلة من الاجراءات اتخذها القوط ضدهم حماية
لأمن دولتهم ، اتضحت خلال السنوات الأخيرة من القرن السابع
وأوائل القرن الثامن ، والزموهم بالتنصر والا فالقتل أو النفي .
وازاء هذا اتجه اليهود الى تدبير المؤامرات ضد الدولة والثورة
عليها بالاتفاق مع اخوانهم في شمال أفريقية ، مما كان له أثر في
إضعاف سلطة القوط وفي الكيان الاقتصادي للبلاد .

أجمع كتاب الفرنج قديمهم وحديثهم على أن فمبا Wamba
هو آخر عظماء الملوك من القوط ، فقد ضرب على الفتنة بيد من
حديد ، ولكن المتآمرين اشتد ساعدهم في الخفاء ، واضطروه الى
أن يلتجئ الى الدير في سنة ٦٨٠ م . واعتلى كرسى المملكة من
بعده ارفج Erwigius ، ويذكر ابن الأثير أن الهوى (ارفج)
« كان في دولته قحط شديد ، حتى كادت بلاد الأندلس تخرب
لشدة الجوع » . وأشار الملك وهو على فراش الموت بأن يخلفه
اخيكا Ejica وهو زوج ابنة فمبا ويسميه العرب ربة أو ابقة
وكان ذلك سنة ٦٨٧ ، فأشرك معه في أواخر حكمه ولده فيتيزا
Witiza الذي يعرفه العرب بغيطشة .

كان غيطشة عطوفا على الشعب ، وعلى ذلك فقد كان مكروهاً

من الكنيسة ، وحين انفرد بالسلطة في سنة ٧٠١ أصدر عفوا عاما عن المنفيين ، كما أعاد الأملاك المصادرة الى أصحابها ، وخفف من غلواء الضرائب ، وتسامح مع اليهود . وتقول الرواية العربية أن غيطشة « كان حسن السيرة لين العريكة ، وأطلق كل محبوس في سجن أبيه وأدى الأموال الى أربابها » . وثارت نقمة رجال الكنيسة وفريق من النبلاء ، وبخاصة حين جعل أخاه أوباس Oppas مطران اشبيلية Hispalis (Sevilla) مطرانا على طليطلة Toleranum (Toledo) وهي قصبة القوط ، كما سلم ولده أخيلا Achila - وهو وقلة أو رملة عند العرب - ولايتي أربونة Narbonne وطركونة Tarragonne تحت وصاية رخشندش Rechesind وهو أحد النبلاء من أقاربه .

كان رذريق (١) وهو الاسم الصحيح لروديسرك Rudericus أو روديرجو Roderigo ابنا لتيودوفريد Theodofred بودوق قرطبة Cordova وكان غيطشة قد سمل عينيه ، لهذا فانه كان من ذلك الفريق من النبلاء الذي استمالته الكنيسة ، فثار بعد وفاة غيطشة سنة ٧٠٩ م مستعينا بعصبة أبيه السابقة في اقليم باطقة ، وأعلنه أتباعه ملكا في قرطبة أوائل سنة ٧١٠ م ، ثم زحف ليقاتل رخشندش الوصي الذي توج ملكا أيضا وانتصر عليه وقتله ، وفر أبناء غيطشة الى إفريقية يطلبون المساعدة من الغرب ، وعلى الفور صادر رذريق أملاكهم كما يقضى عرف القوط .

ساعدت أبناء غيطشة في قضيتهم شخصية لعبت دورا هاما في أحداث الفتح الاسلامي للأندلس وهي يليان Julianus صاحب سبتة Septem (Ceuta) الذي صمد أمام هجوم العرب المتوالي . وكان يليان هذا نبلا من نبلاء الروم انتهز فرصة تداعى السلطة المركزية للدولة الرومانية في إفريقية ، واستقل بكورته ، ولم يلبث أن اتجه

(١) أو لدرابق أو لوندريق أو الاديقون أو اذريقون .

الى القوط يخطب ودهم لما رأى خطورة الهجوم الاسلامى ، وصار تابعا لطيطة وكان ذلك فى زمن أخىكا ، واستمرت تلك التبعية فى عهد غيطشة (١) . . ولكن حين اغتصب أحد النبلاء الحكم من أسرة غيطشة غير يليان موقفه .

تقول الرواية العربية « وكانت عادة ملوك الأندلس أنهم يبعثون أولادهم الذكور والإناث الى مدينة طليطة ليكونوا فى خدمة الملك ، ولا يخدمه غيرهم يتأدبون بذلك ، فاذا بلغوا الحلم أنكح بعضهم بعضا » . وقد أرسل يليان ابنته فلورنדה Florida وهى صغيرة الى بلاط طليطة ، وشبت الفتاة عن الطوق جميلة حسناء ، ويبدو أن رذريق لما خلص له الملك ترصدها حتى تمكن منها وهى تستحم فى حمام الكهف Bano de la Cueva وافتضاها . ولم تجد الفتاة بعد أن فقدتها الملك عذريتها وشرفها الا ان تكتب الى أبيها ، فلما وقف يليان على ما حدث لابنته ثارت نفسه وقال : ودين المسيح لأزilin ملكه ولأحفرن تحت قدميه . وعبر البحر وكان ذلك فى فصل الشتاء ، ووفد على رذريق ، وعجب الملك من قدومه فى ذلك الوقت من السنة ، ولكن يليان زعم أن زوجته مريضة ، وانها تود رؤية ابنتها قبل أن تموت . فسمح له رذريق بذلك وعاد بعد أن طلب منه أن يرسل اليه صقورا يستغلها فى صيده ، فوعده يليان « خيلا وبزاة لم ير مثلها » وهو يقصد بذلك العرب .

بعد أن غادر يليان بلاط طليطة اتجه الى موسى بن نصير (٢) ، وكان قد تم له فتح بلاد المغرب ، وأخذ يسهل له أمر الأندلس ، وكان موسى يود أن يكون فتح تلك البلاد على يديه بعد ان استبانت

(١) يختلفون فى شخصية يليان فهو قوطى أو رومى أو فارسى والبعض انكر وجوده ولكن البحث الحديث يؤكد وجوده وينفى أنه قوطى أو فارسى .
(٢) قائد المسلمين الذى أتم فتح بلاد المغرب ، وقد اختلف القدماء فى أصله وفى نسبته الى العرب ، والأغلب أنه صريح فى العروبة من بنى لخم .

له ضرورة ذلك . فكتب الى الوليد بن عبد الملك يطلعه برغبته في فتح الأندلس ، فجاءه كتابه « خضها بالسرايا حتى تختبر ، ولا تغرر بالمسلمين في بحر شديد الأهوال » ، فرد عليه موسى « انه ليس ببحر ، وانما هو خليج يصف صفة ما خلفه للناظر » ، ولكن الوليد اجابه « وان كان فاخبره بالسرايا » .

وجه موسى مولاه طريف بن ملوك (١) وهو من البربر الى الأندلس في رمضان سنة ٩١ هـ وهو يوافق يوليو سنة ٧١٠ م ، وكان معه مائة فارس وأربعمائة راجل في أربع سفن ، فنزل أول ما نزل بجزيرة صغيرة تدعى بالوماس Palomas قرب الموضع الذي ستقوم عليه فيما بعد البلدة التي تدعى بجزيرة طريف Tarifa ، وهناك اتصل ببعض أصحاب يليان وأبناء غيطشة ، وأصاب بعض المغنم ثم عاد .

جهز موسى مولاه طارق بن زياد (٢) وهو من البربر أيضا في سبعة آلاف من المسلمين أكثرهم من البربر وأقلهم من العرب ، فعبروا المجاز عند سبتة في بعض سفن المسلمين وقيل بل سفن يليان ، ونزلوا الجبل المواجه وكان يسمى كلبه Calpe فدعاه المسلمون بجبل طارق Gibraltar وذلك في رجب سنة ٩٢ هـ أبريل سنة ٧١١ م . واتجه طارق بمجرد نزوله الى أن يحرق سفنه ليقطع على جنده الأمل في الارتداد والعودة ، ثم انصرف الى الاشتباك مع بعض أتباع تدمير Theodomir صاحب الجزيرة الخضراء Algeciras أمثال بنج Bencius وهو ابن أخت رذريق - واديكو Edeco وانتظر المدد من موسى ، فحمل اليه خمسة آلاف فتحرك شمالا .

(١) أو طريف بن مالك وفي رواية ضعيفة انه من العرب .

(٢) مولى موسى بن نصير وهو على أرجح الروايات من بربرة نفزة الذين يسكنون قرب سبتة .

لم تكن المقاومة القوطية قد اتضحت بعد ، وكان تدمير قد
لقى عناء شديدا من العرب ، فكتب الى رذريق - وكان يتعقب
البشكنس - في الشمال : « قد وقع بأرضنا قوم لا ندرى أمن
السماء نزلوا أم من الأرض نبعوا » . فرجع الملك الحصار عن
بنبلونة Pampeluna ، وارتد سريعا الى الجنوب ، وكان ذلك
ليومين بقيا من رمضان سنة ٩٢ هـ الموافق ٢٦ أو ٢٩ يوليو سنة
٧١١ م حين التقى طارق برذريق على موضع من أحواز شدونة
Medina Sidonia عرفت بوادي لكة Guadalere وبه أسمى النهر
القريب ، وكان جيش القوط يزيد على السبعين ألفا على حين كان
المسلمون لا يزيدون على اثني عشر ألفا . وفي وسط هذا الموقف
الذي امتلأ حماسة وتوقدا وقف طارق وقال في خطبة طويلة ،
« أيها الناس أين المفر؟؟ البحر من ورائكم !! .. والعدو أمامكم !
وليس لكم والله الا الصدق والصبر » ...

كان القتال شديدا استمر سبعة أيام ، جد في خلالها أمر
خطير ، ذلك ان نفرا من نبلاء القوط وأبناء ملوكهم وكانوا على خلاف
مع رذريق جال بخاطرهم « ان المسلمين اذا امتلأت أيديهم من
الغنيمة عادوا الى بلادهم ، وإبقى الملك لنا » . فكتبوا طارقا بشرط
ان يرد اليهم ضياعهم التي اغتصبها رذريق ، فوعدهم بذلك ،
فانفلتوا الى المسلمين ، ووقف فريق آخر موقف المتردد ينتظر
النتيجة التي كانت في صالح المسلمين .

ولما تبدت الهزيمة لرذريق أسرع الى جواده الأشهب أورليو
Orelia فامتطاه ، وغادر ساحة القتال سريعا . ويقال ان طارقا
اتبعه فتمكن منه واحتز رأسه ، ويقال أيضا انه غرق في النهر ،
ولكن الرواية الصحيحة انه لم يقتل أو يغرق ، وانما ارتد شمالا
مع بعض أتباعه ، وصمد أمام هجمات العرب المتكررة حتى لقي
حତفه في سبتمبر سنة ٧١٣ في ولاية سلمنقة Salamanca وبعد
ذلك بزمان طويل عثر في لشيدانية Lusitania بمقبرة إحدى

الكنائس الكبرى على شاهد قبر مكتوب عليه « هنا يرقد رذريق
ملك القوط » Hic requiescit Rudericus rex gothorum .

أسرعت فلول القوط وقد هزتها وطأة الهزيمة شمالا الى
استجة Ecija ، وجد طارق في أثرها . وتقول القصة ان قائد
الحامية التجأ الى النهر ليقضى حاجة ، فظفر به طارق وهو
لا يعرفه ، فلما كاشفه بأنه أمير المدينة صالحه على الجزية وخلي
سبيله . ولما استقر له الأمر باستجة أشار عليه يليان قائلا « قد
فرغت بالأندلس ، وهؤلاء أدلاء من اصحابي ، فرق معهم جيوشك ،
وخذ أنت الى طليطلة » . ففرق طارق جيوشه من استجة ، فسار
جيش الى قرطبة وآخر الى مالقة Malaga والثالث الى غرناطة
Grenada وسار هو ومعظم الناس يريد طليطلة .

عبر طارق الوادي الكبير Guadalquivir في طريقه الى
حاضرة القوط ، وكانت المدينة قد تركها أهلها الى مدينة صغيرة
خلف الجبل ، فضم طارق اليهود الى طليطلة وسلك وادي الحجارة
Guadalaia ، ووصل الى مدينة تدعى المائدة Almeida حيث ظفر
هناك فيما يقال بمائدة سليمان بن داود ، وهي مائدة مجلس طليطلة
الدينى Conseil ou Synode de Toledo التى فر بها أهلها الى ذلك
المكان البعيد بين الجبال حتى لا تقع في أيدي العرب ، ثم عاد
الى طليطلة وانتظر أوبة بقية الجيوش .

سار مفيث الرومى في سبعمائة من المسلمين الى قرطبة ،
وباغتها بالليل من ثغرة في سورها واستولى عليها ، واعتصم
أميرها مع أصحابه في كنيسة غربى المدينة ، فحاصروهم المسلمون
ثم أخذوهم على غرة وقتلوهم ، وفر الأمير فقتل أثناء فراره ،
وضم المسلمون اليهود الى المدينة . أما جيش مالقة فقد كلف
يصحبه دليل من أتباع يليان ، ففتحها المسلمون كما سقطت في
أيديهم جميع أعمال رية Rejo ، ولجأ علوجها الى الجبال .

ولما كان هذا الجيش قد أدى مهمته سريعا فقد لحق بالجيش المتوجه الى البيرة Elvira وغرناطة ، فافتتحها المسلمون عنوة وضموا اليهود الى قصبة غرناطة .

توافت الجيوش الى طليطلة ، واستعد طارق للتوغل في البلاد ، ويقال أنه بلغ استرقة Astorga ونواحي جليقية Galaecia واشتوريش Astoria ، ولكن ذلك لم يحدث فان موسى بن نصير قد اشفق على الفتوح من تهور طارق وتوغله في دروب البلاد التي يجهلها ، فلم يجد القائد العام الا ان يرسل كتابه الى مولاه قبل ان يبارح طليطلة يأمره بالتوقف حتى يجيء .

استخلف موسى على القيروان ولده عبد الله ، وخرج الى الأندلس ، فدخلها في رمضان سنة ٩٣ ومعه ثمانية عشر ألفا من العرب والبربر ، وسار الى شذونة ثم قرمونة Carmona ، وواجه هناك مقاومة شديدة من أهلها ، فاضطر الى محاصرتها مدة شهر ، ثم دخلها بحيلة اذ أوهم يليان أهل المدينة أنه واصحابه من فلول القوط التي فرت من وجه العرب ، ففتحوا له ولجندة الأبواب ، وفي اعقابهم دخل العرب . ثم اتجه موسى الى اشبيلية ، وكانت الحامية القوطية قد انسحبت الى لبلبة على مصب وادي أنة Guadiana ، كما هرب نفر من أهلها الى باجة Beja ، ودخل موسى المدينة وأنزل بها نفرا من اليهود .

سار موسى من اشبيلية الى ماردة Merida فحاصرها ، وخرج اليه أهلها ، وقتلوه قتالا شديدا ، فأكمن لهم المسلمون وهزموهم ، فكروا الى المدينة ، فحاصروهم المسلمون شهورا ، ثم فكر موسى في حيلة فصنع المسلمون دبابة احتوى بها نفر منهم ونقبوا سور البلد ، وتقاتل الفريقان ، فانكشف الاعداء . وكان الفتح يوم "لفطر العاشر من يوليو سنة ٧١٣ ، وظفر المسلمون بالشئ الكثير ، ووقعت امرأة رذريق في أيديهم فأنكحها موسى ولده عبد العزيز ،

وصالح أهل المدينة على أن جميع أموال القتلى يوم الكمين ،
وأموال الهاربين إلى جليقية ، للمسلمين ، وأموال الكنائس وحليها
لها ، واستقر المسلمون بالمدينة فترة يستريحون من عناء الحرب .

ولكن موسى لم يلبث أن سمع بانتفاض اشبيلية ، واجتمع إليها
أهل باجة ولبلبة الذين كانوا هاربين ، وقتلوا ثمانين من رجال
الحامية الإسلامية ، فسير موسى إليها ولده عبد العزيز ، ففتحها
من جديد وانتقم للمسلمين من أهلها . ثم سار موسى من ماردة
في شوال سنة ٩٤ يريد طليطلة ، فأسرع إليه طارق قبل أن يصل
إلى المدينة في وجوه الناس ، واجتمع إليه عند موضع من كورة
طليطلة Talavera على مبعدة مائة وخمسين ميلا من طليطلة .

زحف موسى وطارق إلى سرقسطة Saragossa ، ففرغ أهلها
وأزمعوا الفرار ، ولكن موسى أرسل إليهم رسولا أبلغهم الأمان ،
ودخل المسلمون المدينة دون مقاومة تذكر . ثم اخترق ولاية نبره
Navarre (الشجر الأعلى) وطركوثة . وإرشالونة Barcelona
وأثاه كتاب الوليد بن عبد الملك بأن يرجع ، فلم يأبه به ، ثم افترق
عنه طارق فسار غربا إلى جليقية وكتبرية Cantabria وهاجم
البشكنس واستولى على أمايا Amaya واسترقه وليون Leon
أما موسى فاتجه شمالا ، واخترق جبال البرتات Pyrenees وغزا
لانجدوك Languedoc وسبتمانيا Septemania وقرقشونة Carcassone
وأربونة حتى وصل إلى وادي الرذانة - الرون - ولوذنون - ليون
Lyon - وغزا الفرنج وجرت المعارك الأولى بينهم وبين المسلمين
عند أسوار أربونة .

يقول ابن خلدون « وجمع أن يأتي المشرق على القسطنطينية ،
ويتجاوز إلى الشام دروب الأندلس ، ويخوض ما بينها من بلاد
الأعاجم أمم النصرانية ، مجاهدا مستلحما إلى أن يلحق
بدار الخلافة » . والواقع أن موسى وهو القائد الحريص لم يكن

ليقوم بتلك المفامرة الجريئة التي تعد غريبة حتى على شباب الأمة في شبابها ، والأغلب انه قال ذلك في ثورة حماسة مؤقتة لا لغرض دائم أو مستقر . وعلى أية حال فانه قد اكتفى بذلك وارتد خلف البرتات ، وسار جنوبا بغرب متعقبا فلول القوط المذعورة التي لجأت الى الكهوف والمغاور من جبال كنتبرية وجليقية وحط رحاله عند لك Lugo بالقرب من أبيت Oviedo وهرب السكان المجاورون الى مكان بعيد ، هو صخرة أوربا Picos de Europa ، وسار هو بنفسه حتى بلغ ثغر جيجون Gijon ، وكان يتأهب لاستئصال البقية الباقية من جنود القوط ، لولا ان جاءه رسول آخر للوليد ، فأمسك بعنان جواده وحوله نحو القبلة ، ففادر موسى الأندلس وكان ذلك في ذى القعدة سنة ٩٥ هـ .

الفصل الرابع

×—————×

الجزيرة العاصمية

القوط يجمعون فلولهم - مصرع
عبد العزيز بن موسى سنة ٩٧ هـ - السمع
ابن مالك والى الأندلس يستولى على
أربونة - عنبسة بن سحيم يتوغل في فرنسا -
عبد الرحمن الفافقى ومركة بلاط الشهداء
سنة ١١٤ هـ - عقبة بن الحجاج وبداية
الفتنة - بلاى يجمع شعث القوط في
أشتوريش - البربر يثورون على العرب
سنة ١٢٢ هـ - معركة وادى سليط وبداية
أمر الشاميين - تجدد الفتنة بين
القيسية واليمانية - الصميل بن حاتم يترغم
القيسيين - تولية يوسف بن عبد الرحمن
الفهري ومركة شقندة سنة ١٣٠ هـ -
الثورة في سرقسطة سنة ١٣٦ هـ .

((اغثنا بوال يجمعنا ويأخذ
بيعتنا له ولأمير المؤمنين ، حتى
يصير الشام والبلدان على
دعوة واحدة ، فقد أفنانا القتل
وخفنا العدو على ذرائنا)) .

×—————×

كانت الجزيرة لما أشرف العرب على البرتات الشامخة قد
أذعنت لسيوفهم ، ولم تخرج عن طاعتهم سوى مرسية Mursia
وأقاليمها في الشرق وجليقية النصرانية في قاصية الشمال إلى
الغرب . وكان عبد العزيز بن موسى وهو الذي آلت إليه ناصية
الأمر بعد رحيل أبيه إلى حاضرة الخلافة قد اتجه إلى مرسية ،
وحاصرها حتى اضطر أميرها وهو تدمير - الذي أسميت باسمه
الكورة - أن يصالح المسلمين على مدائنه السبع والأمان على النفس
والمال والدين ، وعلى أن يؤدي الجزية ، فانصرف المسلمون
عنه (١) .

لم يستمر الحال بعد العزيز طويلا ، ذلك أن أصحابه اتهموه
بأنه اتخذ أبهة الملك بتحريض من زوجته سليلة الملوك ، فوثبوا عليه

(١) استولى المسلمون على مرسية في عهد أبي الخطار الكلبى سنة ١٢٥ هـ

كما سيأتى بعد .

واغتالوه وهو يؤدي صلاته بمسجد ربينة Rufina في اشبيلية وهي اذ ذاك قصبة الأندلس ، غير انه لا يبعد أن تكون لسليمان ابن عبد الملك (١) - وكان حانقا على موسى بن نصير - يد في ذلك ، اذ انه لم يلبث أن عزل عبد الله بن موسى عن افريقية ، وتبع آل موسى بن نصير في الآفاق .

استقرت ولاية الأندلس بعد مصرع عبد العزيز سنة ٩٧ هـ في يدى ابن عمته وهو أيوب بن حبيب اللخمي ، وفي عهده انتقلت حاضرة الامارة الى قرطبة ، ولكن حكمه لم يستمر سوى شهور ، لأن محمد بن يزيد القرشي عامل افريقية (٢) استخلف على الأندلس الحر بن عبد الرحمن الثقفي ، فقدم البلاد في ذي الحجة ، وتسلم السلطة ثلاث سنوات ، فغزا الفرنجة ، وما أن عاد الى قرطبة حتى أتاه كتاب عمر بن عبد العزيز (٣) .

كان السمع بن مالك الخولاني - وهو الوالي الجديد - أحسن ولاة الأندلس ، وأكثرهم تقوى ودينا ، فقد نظم أمور الجزيرة وخمس الأراضي وأعاد بناء قنطرة قرطبة الرومانية ، ثم زحف شمالا واخترق شواحق البرتات واستولى على أربونة - ناربون - وهي قاعدة سبتمانيا ، كما اجتاح قرقشونة Carcassone واتجه الى اقطانية Aquitania فاستولى على طرسونة Tarascon وأحرق بطلوشة Tolosa عاصمة الولاية . ولكن جيشه انكسر على يدى أوديس Eudes دوق اقطانية ، وأصيب السمع بجراحات مات

(١) ابن عبد الملك بن مروان وأخو الوليد بن عبد الملك تولى الخلافة ثلاث سنوات ٩٦ - ٩٩ وكان منشأ العداء بينه وبين موسى حول الأسلاب التي أتى بها من الأندلس .

(٢) كانت ولاية الأندلس تتبع في الغالب ولاية افريقية .

(٣) أحسن الخلفاء الأمويين وأورعهم تولى الخلافة بعد سليمان بن عبد الملك ٩٩ - ١٠١ .

من جرائها في يوم عرفة سنة ١٠٢ هـ (يونيو سنة ٧٢١) ، ولم
تتبق له من ذكرى في غاله غير زقاق باسمه في أربونة يعرف بزقاق
السمح Rue de Zama .

ارتدت الجيوش العربية ارتدادا موفقا ، وذلك بفضل قائد
عظيم سوف يبرز في الميدان فيما بعد وهو عبد الرحمن بن عبد الله
الغافقي ، فتولى أمور الأندلس باتفاق الجماعة حتى قدم عنبسة
ابن سحيم الكلبى من قبل بشر بن صفوان الكلبى عامل أفريقية
في صفر سنة ١٠٣ ، فأصلح الأمور وغزا قرقشونة وصالح أهلها
على نصف أعمالها وعلى جميع من بالمدينة من أسرى المسلمين ،
وعلى أن يؤدوا الجزية ويلتزموا بأحكام أهل الذمة من محاربة
من حارب ومسالمة من سالم ، ثم زحف على نيمة Nimes وارتدت
القوط الى محالفة العرب ، وتابع سيره شمالا حتى وادى الرذانة ،
وتقدم في برغونية Bourgogne واستولى على مدينة أوتون Auton
وغزا صانص Sens وما وراءها ، وامتد سلطان المسلمين سريعا
في جنوبى فرنسا . . . ولم يلبث أن قتل عنبسة في حوادث ذلك
النضال في شعبان سنة ١٠٧ (ديسمبر سنة ٧٢٥) .

وكان الثار لمصرع عنبسة من نصيب عذرة بن عبد الله الفهرى
الذى اقتحم سببتمانيا ، وتوغل في بلاد الرذانة وغزا الالبين
Albegeois وأقليم رويرج Rouergue وجيفودان Gevaudan وليفيه
Levelay . وتلاه الهيثم بن عبيد الكنانى أو الكسلاوى ، فعبر
البرتات وغزا لوذون Lyon وماسون Macon وشالون Chalons
واستولى على أوتون ثم ارتد جنوبا .

تتابع ولاية الأندلس بعد مصرع عنبسة ستة ولاة في مدى خمس
سنوات ، هم عذرة بن عبد الله الفهرى ويحيى بن سلامة الكلبى
أو العاملى وحذيفة بن الأحوص القيسى من إقبال بشر بن صفوان
الكلبى ، ثم عثمان بن أبى نسعة الخثعمى والهيثم بن عبيد الكنانى .

ومحمد بن عبد الله الأشجعي من قبل عبدة بن عبد الرحمن السلمي
على أن أظهر خلفاء عبسة كان عبد الرحمن بن عبد الله الفافقي
الذي تولى الإمارة سنة ١١٢ هـ .

كان عبد الرحمن رجلا على قدر كبير من التقوى والدين
والرغبة في الجهاد ، يقول كونده Conde « وعندما تولى عبد الرحمن
ابن عبد الله الفافقي مهام منصبه كأمر على أسبانيا قام بجولة
في ولاياته من أجل إعادة كل شيء إلى النظام وإزالة الظلم الذي
أجراه الهيثم ، واستمع إلى شكاوى الناس باهتمام ولطف وإناة
وأعلن العدالة بين المسلمين والمسيحيين على السواء ، وعزل
هؤلاء الذين كانوا يظلمون الناس ، وأحل مكانهم رجلا معروفين
بالنزاهة والاستقامة عارفين بواجباتهم إزاء الجميع ، وأعاد إلى
المسيحيين كنائسهم التي كانت قد أخذت منهم في الماضي وخلافا
لما اتفق عليه في المعاهدات » .

وإذا كان عبد الرحمن أميرا عظيما ومسلما عدلا ، فإن بعض
صفار النفوس من ولاية الشمال لم يكونوا كذلك ، إذ أن واحدا منهم
تسميه المصادر النصرانية مونوزا (١) Munuza عقد محالفة
مع أمير أقطانية المسيحي وتزوج ابنته . فزحف إليه عبد الرحمن
وقتله ، وانتصر على حليفه الدوق وإنتهب عاصمة طلوثة ، واقتحم
مدينة تور Tours الشهيرة ، وبدأ كأن فرنسا قد أذعن
للمسلمين .

ولكن قارلة Carolus زعيم الفرنجة التقى بعبد الرحمن في
ذلك السهل الفسيح الممتد بين تور وبواتيه Poitiers في
أخريات شعبان سنة ١١٤ هـ (أكتوبر سنة ٧٣٢ م) . وفي ذلك
المكان الذي عرفه العرب ببلاط الشهداء تقاتل الفريقان قتالا

(١) لا تعرف شخصيته على وجه دقيق عند المسلمين ، وإن وجدت بعض
التروحيات لحسين مؤنس .

شديدا ، وبدا أن المسلمين قد أحرزوا تفوقا كبيرا ، لولا أن ثلة من فرسان العدو نفذت الى خلف الصفوف حيث أودع المسلمون غنائمهم ، وانزعج البربر وهم أكثرية في معسكرهم ، وهبوا لانقاذ الغنائم ، وانفتحت ثغرة تدفقت منها جموع الفرنج ، واستمر القتال وخر أمير المسلمين صريعا ، وأنهال الفرنجة يحصدون المسلمين ، غير أنهم وقد أفاقوا من هول الخديعة صبروا حتى أقبل الليل وفي هدوء تام انسلوا تحت جناح الظلام ، ولما أصبح الصباح وجد الفرنجة معسكر العرب خاليا منهم .

صارت الأمور في الأندلس بعد مصرع عبد الرحمن الى عبد الملك بن قطن الفهري ، وكان ظلوما جائرا في حكومته ، ولكنه لم يغفل أمر الجهاد فغزا البشكنس سنة ١١٥ هـ ، وهاجم نواحي أرغونة Aragon ونبرة وعبر البرتات وحصن معاقل المسلمين في غالة . وعاد صفار حكام سبتمانيا الى محالفة المسلمين ضد اوديس ، وكان أظهرهم مورونت Maurontes دوق مرسيلية Massilia ، واتحد مع والي أربونة الذي يعرفه الفرنجة بجوزيف Jussef ، وهو يوسف ، فعبر هذا الأخير الرذانة واستولى على آرلة Arles وأبنيون Avignon ، وتجنب قارلة لقاء العرب بعد أن ذاق مرارة الحرب معهم ، فلما اطمأن ابن قطن الى الجبهة الفرنجية اتجه الى امارات البرت فأوقع بها ثم عاد .

اتجهت نية هشام بن عبد الملك الى أن يجعل عبيد الله ابن الحجاج مولى بنى سلول - وكان عامله على خراج مصر - على أفريقية ، فما كاد يستقر بالقيروان حتى أرسل عقبة بن الحجاج السلولى واليا على الأندلس في شوال ١١٦ هـ ، وكان ثالث ولاية الأندلس العظام بعد السمع بن مالك الخولانى وعبد الرحمن الغافقى ، وقد اختار الأندلس لأنه يريد الجهاد وهى على قوله « موضع جهاد » فأغار على دوفين Dauphine ، واستولى على فلانس Valance ولوذن ووغل في برغونية وحصن أربونة ، فلما

حاصرها قارلة بعد عودة عقبة الى قرطبة ألفاها صعبة المنال فرجع عنها مدحورا .

ويرتبط عهد عقبة بميلاد مملكة اشتوريش النصرانية ، فان بلاى بن فافلة (١) Fafila - Pelayo جمع فل القوط واستولى على اشتوريش وجليقية وكنترية ، ولما توجه عقبة لقتال الفرنج بسبتمانية انصرف اليه ورده الى الصخرة ، كما أدخل الكثيرين من أهل جليقية في الاسلام ، وكادت تنهار دولة الجلالة . ولكن الرواية النصرانية تذكر أن عقبة أرسل حملة أخرى بقيادة علقمة (أو القماح) Alchaman والى اشتوريش وأنه انهزم ، وفتكت به قناصة العدو في مغارة أونجا Cova-d'onga وعادت سيطرة بلاى على البلاد . وواقد بالغ مؤرخو الفرنج في أهمية هذه المعركة التي تعتبر أسطورة تستند في الأصل إلى حقيقة واحدة ، وهي انحصار المد العربى عن تلك البلاد النائية البعيدة بعد أن أدرك العسرب صعوبة اجتيازها ، ولربما أراد عقبة متابعة الغزاة ، لولا انه مات أو عزل على يدى الأمير السابق عبد الملك بن قطن .

كان عبيد الله بن الحبحاب قد استعمل على طنجة Tingis ولده اسماعيل فجعل معه عمر بن عبد الله المرادى ، فأساء السيرة وأراد أن يبقى الجزيرة على من أسلم من البربر كعهد الحجاج ابن يوسف في بلاد العراق ، فثار البربر ثورتهم الكبرى في سنة ١٢٢ هـ وقتلوا المرادى ، وبايعوا واحدا منهم بالخلافة وبامارة المؤمنين ، وفتكوا بجيش العرب الذى أتى من القيروان ، كما فتكوا بجيش آخر قدم من الشام في سنة ١٢٣ بقيادة كلثوم ابن عياض القشيري ، ولجأت بعض فلول العرب الى افريقية والبعض الآخر الى سبتة .

(١) أو بلايوس Pelaius أو بلاجيوس Pelagius وهو الاصل في ملوك قشتالة Castille الذين طردوا العرب من الاندلس في النهاية .

كان بلج بن بشر القشيري ، وهو ابن أخى كلثوم بن عياض مع الناجين الى سبته ، وكانوا في حال سيئة من الجوع والعري ، فأرسل بلج الى ابن قطن يلتمس مراكب للعبور الى الأندلس ، فامتنع الرجل أول الأمر ، وخاف ان قدموا غلبوه على أمره . ولكن حدث في ذلك الحين أن اقتدى بربر الأندلس ببربر العدو ، وثاروا بالعرب ، وأخرجوهم من جهات الشمال ، فلم يجد أمير الأندلس إلا أن يسمح لهؤلاء الشاميين بالعبور ، فساعده ضد البربر ، وانتصر العرب عليهم في وادي سليط *Guazalete* وعاد الشاميون الى قرطبة وقد تحسنت أحوالهم وصاروا في منعة ، واختلفوا مع ابن قطن ، وانتهى الأمر بالحرب بين أهل الشام (١) بزعامه بلج ضد أهل البلد (٢) والمدينة (٢) بزعامه ابن قطن . . وانتصر الشاميون وقتل ابن قطن وصلب وهو شيخ كبير في أوائل ذي القعدة سنة ١٢٣ هـ (سبتمبر سنة ٧٤١) .

لم يقدر بلج أن يستمر به الحال طويلا في ولاية الأندلس ، إذ ثار قطن وأمينة ابنا عبد الملك بن قطن ، وأيدهما عبد الرحمن ابن علقمة اللخمي والى أربونة وعبد الرحمن بن حبيب الفهري ، وفي أقوة برطورة *Aqua Portera* بالقرب من قرطبة انتصر أهل الشام ، غير أن بلج أصيب ومات بعد أيام من النصر في شـوال سنة ١٢٤ ، وصارت رئاسة جند الشام وولاية الأندلس من بعده الى ثعلبة بن سلامة العاملي . ولكن أهل البلد والبربر لم يطيعوا الوالى الجديد ، فسار اليهم وأعمل السيف فيهم ، وأخذ يبيع نساءهم وأولادهم على المسارة من قرطبة ، حتى ضج الناس فكتبوا

(١) وهم عتاد الدولة الأموية وكثرتهم من اليمانية .

(٢) أو العرب البلديون وهم جيل الفتح وأولادهم ومن شايهم من البربر والأسبان .

(٣) أهل الحجارة الذين يحملون الضغينة لأهل الشام منذ يوم الحرة ومصرع عبدالله بن الزبير وأغلبهم بالأندلس قيسية وفهرية .

الى حنظلة بن صفوان الكلبي (١) عامل افريقية ، وكان قد قمع ثورة البربر منذ قليل « أغثنسا بوال يجمعنا ويأخذ بيعتنا له ولأمير المؤمنين ، حتى يصير الشام والبلدان على دعوة واحدة ، فقد أفنانا القتل وخفنا العدو على ذرارينا » .

أقبل أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبي والى الأندلس الجديد في رجب سنة ١٢٥ (مايو ٧٤٣) والقوم ما زالوا في فتنة ، فلما أظهر لهم عهده سكتوا عن الحرب ، فدعى عسكره بعسكر العافية ، وكان في أول عهده عدلا بين الجميع ، فأمن ثعلبة كما أمن ابنى عبد الملك ابن قطن ، وأنهى الاستقلال الذي كانت تتمتع به تدمير منذ عهد عبد العزيز بن موسى بن نصير ، وفرق أهل الشام على الكور ، وكانت معه الطالعة الثانية منهم ، فأتزل أهل دمشق البيرة وهي غرناطة وأهل حمص اشبيلية وأهل قنسرين جيان وأهل الأردن ريه وأهل فلسطين شذونة وهي شريش Xerxes وأهل مصر (٢) اكشونية Ossonoba وتدمير وباجة .

ولكن أبا الخطار لم يستطع أن يتغلب على تعصبه لقومه ولقبيله ، فاختلف مع الصميل بن حاتم ، وكان رجلا سمحا كريما كثير العطاء ، وهو حفيد شمر بن ذي الجوشن الضبابي أحد قتلة الحسين بن علي رضي الله عنه ، فلما فتك به المختار بن أبي عبيد الثقفي ، مع جماعة التوابين (٣) ، ارتحل أهله وبنوه الى بلاد الشام ، وحين جهز هشام الجيش الذي أرسله لقمع ثورة البربر مع كلثوم بن عياض كان

(١) من أحسن ولاية المغرب وهو أخو بشر بن صفوان وينتمي الى اليمن و

(٢) كان حرب مصر معدودين في ذلك الحين ضمن جند الشام .

(٣) التوابون هم جماعة المختار بن أبي عبيد الثقفي الذين انتقموا لمصرع الحسين بن علي فقتلوا قتله وانضموا الى حزب محمد بن الحنفية ثم حزب عبدالله بن الزبير ولكن المختار كان يسعى لصالحه الخاص فأنتهى الأمر بوقته على يدى مصعب بن الزبير سنة ٦٧ هـ .

الصميل في جند قنسرين ، كما كان من الفل الذي ورد سبته مع بلج ابن بشر ، ثم ارتفع شأنه حتى صارت اليه رياسة قيس (١) .

أساء أبو الخطار الى الصميل ، ف ضرب قفاه حتى مالت عمامته ، فلما قيل له : نرى عمامتك مالت . قال : ان كان لى قوم فسيقيمونها . وأتصل الرجل ببعض الحائقين على أبى الخطار من اليمانية وأهل الشام وعلى رأسهم ثوابة بن سلامة الجذامى ، وكان أبو الخطار قد استعمله على اشبيلية ثم عزله عنها ، فوعده الصميل بالإمارة اذا عاونه على اخراج أبى الخطار . وفى رجب سنة ١٢٧ (ابريل سنة ٧٤٥) انتصر الحليفان بشذونة ، وأسر أبو الخطار وتولى ثوابة ، وجاءه عهد عبد الرحمن بن حبيب الفهرى والى أفريقية .

ولكن نفرا من اليمانية المشايخين لأبى الخطار كسروا عليه السجن وأخرجوه ، وعاد النضال من جديد بين اليمانية والمضرية ، وانتصرت مضر ، وفر أبو الخطار الى باجة ، واستقر الأمر لثوابة ، الا أن أجله وافاه فى المحرم سنة ١٢٩ هـ . وعاد الاختلاف بين قيس واليمن ، وأقاموا بلا وال أربعة شهور ، وان جعلوا للقضاء عبد الرحمن بن كثير اللخمى . وعندما رأى الصميل ان هذه الحال لن تؤدى الا الى خراب الأندلس أشار بأن يكون الوالى من قریش ، وكان لها فى ذلك العصر مقام كبير بين قبائل العرب ، واقترح أن يكون الأمر لواحد من ساداتها هو يوسف بن عبد الرحمن الفهرى الذى قدر له أن يختم عصر الولاة بالأندلس .

كان يوسف من الأسرة ذاتها التى انجبت عقبة بن نافع الفهرى فاتح أفريقية ، وتكاد تجمع كتب التاريخ على نسبته اليه فهو يوسف ابن عبد الرحمن بن أبى عبيدة (أبى عبيدة) بن عقبة بن نافع

(١) فى هذا الكتاب القيسية والمضرية والعدنانية سواء وكذلك الكلبية واليمانية أو اليمنية والقحطانية .

الفهرى (١) ، أى انه ابن عم أمير أفريقية التى أضحت بيديه أمورها منذ سنة ١٢٧ . وكثير من المؤرخين يذكرون أيضا انه جوزيف الذى دوح الفرنجة فى بلاد الغال ، وهذا ليس ببعيد اذ كان يوسف افضل ولاية الأندلس بعد عقبة بن الحجاج ، وقد اجتمعت اليه الكثير من صفات القيادة والريادة التى كانت لجده العظيم .

كانت بلاد الأندلس قد اضطربت الى حد كبير قبيل صعود يوسف الى كرسى الامارة فى ربيع الثانى سنة ١٢٩ هـ ، فأظهر رغم أنه كان فى السابعة والخمسين اذ ذاك همة عالية لا تدانيها همم الكثير من الشباب ، فعزل الحكام العابثين وقمع المظالم والفوضى وأصلح الطرق العسكرية ، وعدل نظام الضرائب على نحو يرضى الأهلىن وبخاصة من النصارى ، وأعاد تنظيم الأقاليم الى خمس ولايات كما كانت أيام القسوط ، وهى باطقة وطيطة وماردة وسرقسطة وأربونة . . غير انه بينما كان كذلك اذ جاءته الأخبار بخروج اليمانية .

والتقى الفريقان بشقندة Secunda سنة ١٣٠ هـ (٧٤٧ م) « وتقاتلا بالرماح حتى تقطعت وبالسيف حتى تكسرت ثم تجاذبا بالشعور » ، وانجلت المعركة عن انكسار اليمانية ومصرع أبى الخطار . واستقام الأمر ليوسف ، وصار الصميل وزيره وصاحب دولته ، يقرب منه من يشاء ويبعد عنه من يشاء . واتجه يوسف بعد ذلك الى الثوار باشبيلية فأقمعهم ، كما دس الى عبد الرحمن بن علقمة من اغتاله وحمل رأسه اليه ، وأراد أن يكسر شوكة اليمانية بسرقسطة وكانوا كثرة أهلها ، فرماهم بالصميل وهو القيس القح وحتى لا ينافسه فى سلطانه بقرطبة .

(١) فى بعض الكتب انه يوسف بن عبد الرحمن بن حبيب بن أبى عبدة بن عقبة بن نافع الفهرى وما جاء بالمتن يتفق مع ابن الأبار فى كتابه « الحلة السراء » وروايته هى أرجح الروايات .

غير أنه حدث في سنة ١٣٦ هـ أن ثار بسر قسطة عامر بن عمرو ابن وهب من بنى عبد الدار بن قصي ، وأيده الحباب بن رواحة من بنى زهرة بن كلاب (١) ، واتخذوا السواد وأعلنوا الطاعة لبني العباس ، فأرسل الصميل إليهما بعثة ففتكا بها وانضم إليهما أهل الخلاف وأحكما الحصار على سر قسطة ، وكتب الصميل إلى يوسف في المدد ، ولكنه أبطأ عليه رجاء اهلاكه . فكتب إلى قومه من قيس ليمنعوه ، فقام في ذلك عبيد بن علي الكلابي في قيس وربيعة ، وانضم إليه أنصار بنى أمية ومواليهم . فلما سمع العبدري والزهرى بالمدد الواصل ، انكشفا عن المدينة ، وخرج الصميل إلى قومه فتلقاهم بالترحاب ، وأجزل عطاءهم ثم عاد معهم إلى قرطبة واعتزم يوسف الخروج إلى الثغر في ذي الحجة سنة ١٣٧ هـ ، إذ أن العبدري والزهرى انتهزا فرصة خلو الثغر من الصميل وعادا فتملكاه ، وطلب يوسف معسونة موالي الأمويين التي سبق أن قدموها للصميل ، وفرق فيهم ألف دينار ، فوعده أن يلحقوه بطليطلة . . ولكنهم لم يفوا بما وعدوا .

(١) أي انهما من قريش .

الفصل الخامس



الذاحل

هموم عبد الرحمن - بدر يعود من
الأندلس - اتصالاته بزعماء الحزب الأموي -
أبو عثمان وابن خالد يطلبان المـون من
الصميل - الأمويون يياسون من الصميل
ويستميلون اليمانية - عبد الرحمن يدخل
الأندلس - المراسلات بينه وبين يوسف
الفهرى - توالى الحشود - معركة المسارة
سنة ١٣٨ هـ - الصلح بين عبد الرحمن
ويوسف الفهرى •

« اليوم يوم عرفة وغدا
الأضحى والجمعة وأموى مع
فهرى ، أرجو انها أخت يوم
مرج راهط » .

عبد الرحمن بن معاوية

×—————×

كان عبد الرحمن مذ ، وجه مولاه بدرًا الى الأندلس يعيش في
جو تحيط به الأسرار والغيوم ، وتسرى فيه سحابات من القلق
والألم ومن الحزن والأسى ومن التأهب والنكوص . . وهكذا كان
حاله الذي قضاه سنتين مرتا عليه مر الدهور . وكان لا يجد من
يشكو اليه آلامه ، ويستمد منه القوة التي تعينه على مواجهة
الصعاب ، ذلك أن الجميع الذين شملهم عز بنى أمية ومجد بنى أمية
قد قلبوا ظهر المجن لأبنائها وأصحاب تراثها وثراتها حين بدأوا
يطالبون بتراثهم وثراتهم .

وكان بدر قد انقطعت أخباره منذ غادر سيده ومولاه الى
سهوب الجزيرة الواسعة ، فحسب عبد الرحمن أنه خانه أو غدر
به ، أو أنه يئس من أمر الدعوة وآثر السلامة والركون الى الراحة
بعد عناء السنين . وكاد اليأس يتسرب الى قلبه هو الآخر ، وكانت
خيل عبد الرحمن بن حبيب لا تزال تطلبه وتتبع أخباره وتسأل.

القاصي والداني عنه ، حتى انه اضطر يوما أن يتخفى تحت ثياب امرأة أحد شيوخ نفزة كي لا يقع في أيدي أعدائه . كما كان عبد الرحمن يحس بأن أخواله قد بدأوا يضيقون بهذا الضيف الوافد بعد أن طال أمد ضيافته ووفادته .

و ذات يوم كان عبد الرحمن قاعدا على سيف البحر من مغيلة ، وقد أدى صلاته ، والوقت وقت غروب ، ومعه نفر يسير من أهله ومن ظلوا على ولائهم له من أصحابه . . كان يتأمل كيف كانت آماله وماذا صارت إليه ، وحول عينيه الى السماء وقد التقت بلجج البحر في الأفق البعيد ، حيث تكمن وراءه أرض الجزيرة ومحط آماله . . وفجأة لاح مركب عند نهاية مرمى البصر .

لم يبد عبد الرحمن كبير اهتمام بالمركب القادم ، فقد مرت أمامه بهذا الشاطئء مراكب كثيرة ، ولكن من كانوا معه شاهدوا رجلا يجرى على سور المركب ، ثم يرمى بنفسه الى اليم ، ولم يلبث قليلا حتى صعد الى سطح الماء وبعد ضربتين أو ثلاث من ساعديه وصل الى الشاطئء قبل أن تلقى السفينة بمراسيها ، ورأى الناس وجها ظل غريبا عنهم سنين . . وكان بدرا .

لا يستطيع كاتب أو روائي أو مؤرخ مهما أسعفته قريحته وصفا ذهنه أن يصور كيف كان اللقاء بين عبد الرحمن ومولاه الأمين ، فقد مضت أشهر على فراقه اياه ، وقد كان فتانا في شوق ليتشوف أخباره ، ويتعرف ماذا آلت اليه الدعوة ، وحال الناس في الأندلس ، وهل كانت أرض الجزيرة كما وصفها وغرد بحسنها الشعراء ودبج الأدباء !!! وافاق عبد الرحمن بعد ساعات نسي خلالها نفسه ، وعاشت روحه في واد بعيد . وقدم بدر لسيدة أصحابه وكانوا أحد عشر من اليمانية ومعهم واحد سأل عبد الرحمن ما اسمه فأجاب « تمام » وسأله ما كنيته فأجاب « أبو غالب » فصاح وقد تهلل وجهه « الله أكبر !! الآن تم أمرنا وغلبنا بحول الله وقوته » .

كان بدر عندما قدم الأندلس قد اتجه الى موالى الروانية ،
وقد اجتمعت رياستهم الى اثنين من اشرافهم وسراتهم ،
هما أبو عثمان عبيد الله بن عثمان وصهره عبد الله بن خالد من موالى
عثمان بن عفان ، وكانا يتواليان لواء بنى أمية ، كما كانت اليهما
رئاسة جند الشام النازلين بكورة البيرة . ولم يجد بدر عناء كبيرا
في ضمهما الى الدعوة ، وكذلك كان حال أبى الحجاج يوسف
ابن بخت ، وهو فارسى وكان من رجالهم ، وأنجاهم بجند قنشرين .
ولم تلبث أن انتشرت الدعوة بين سائر الموالى الروانية ، وانتظروا
عصبا أو قبيلة يقوم بأمرهم .

وكانت لموالى بنى أمية حظوة كبيرة عند يوسف والصميل ،
وصاروا في جملة المدد الذى أعان الصميل ضد ثوار سرقسطة ، وفي
الطريق الى قرطبة أعطاه عبيد الله بن عثمان كتابا ، وأعلمه أن
« لا سخط الا برأيك فان ترضى أمرا رضىناه ، وان تسخطه
سخطناه » . وتناول الصميل الكتاب وتأمله مليا ثم قال : « دعونى
أروى وأنظر » عندئذ جمعه الأمويون مع بدر ، فكلمه في أمور
لم تذكرها كتب التاريخ ، وكان الصميل مترددا ، وظل على حاله
الى أن دخل وهم قصبة الامارة .

لما اتجهت نية يوسف للخروج الى الثغر ، وعده الأمويون للحاق
به في طليطلة ، ثم ودعوه وانصرفوا الى توديع الصميل ، وكان قد
خرج عن ترده ، ودخل معهم فى الأمر ، فوعدهم أن يقرع صلعة
يوسف بسيفه اذا خالفه ، فقبلوا يديه وشكروه وانصرفوا عنه . وفي
الطريق لحق بهم الصميل على فرسه الأشهب « الكوكب » واذا به
قد غير رأيه فجأة ، وقال لأبى عثمان وابن خالد ان صاحبهما من قوم
« لو بال أحدهم فى هذه الجزيرة لفرقنا نحن وأنتم فى بوله ..
وانا أعلمكما ان أول سيف يسل عليه فسيفى » .

قال أبو عثمان : ثم انصرف عنا فانقطع رجاؤنا عن مضر وربيعه
بأسرها ورجع رأينا الى أطباء اليمن وادخالهم فى رأينا ، ففعلنا من

فورنا لم نمر بيماني وثقنا به الا عرضنا عليه أمر ابن معاوية ودعونا إليه ، فألفينا قوما قد وغرت صدورهم ، يتمنون شيئا يجدون سبيلا الى طلب ثأرهم ، ورغبوا في عقد بنى أمية بالآندلس . . » .

وكان عبد الرحمن قد جعل الى بدر خاتمه ليكتب الى من أمل في دخوله طاعته ، فاجتمع الرجل مع أبي الصباح بن يحيى اليحصبي شيخ اليمانية بغربي الآندلس ، وأخذ يذكره بأيادي هشام ابن عبد الملك ، وما زال به حتى أجاب ، وأيده حسان بن مالك الكلبى ، ووافقه رؤساء الشاميين بشذونة . وهم غياث بن علقمة اللخمى وأبو علفة وزياد بن عمرو الجذاميان ، كما أجابه القحطانيون بالبيرة وجيان ، وتبعهم ميسرة وقحطبة رئيسا طيء . . ولما اكتمل عقد الأنصار قالوا لبدر : « امض فيه » فمضى الى عبد الرحمن .

انتظر يوسف الأمويين بطليطلة ، فلما طال انتظاره سار الى سرقسطة ، وأذاق المدينة ويلات من الحصار ، حتى اضطر أهلها الى مصالحته ، على أن يسلموا اليه عامرا وولده والحباب الزهرى ، فاستنزلهم على الأمان ، ولكنه لم يلبث أن عدل عن رأيه — وأراد قتلهم . ولما عارضه رؤساء قيس أرسل نفرا منهم لحرب البشكنس ، وعليهم سليمان بن شهاب والحصين بن الدجن العقيليان ، ثم انفرد يوسف حتى بلغ وادى شرنبة ، فأدركه الرسول بهزيمة ابن شهاب وقتله وهلاك عامة الناس وان فلهم قد ورد سرقسطة عند ولده أبى زيد عبد الرحمن الذى خلفه على الثغر .

وكانت تلك هى فرصة يوسف فأمر بعامر وولده والحباب ، فضربت أعناقهم وتقول الرواية انه لما فرغ أمر بالطعام مد أمامه سماط كبير ، وجلس اليه وقد ارتاح باله وإطمأنت سيرته ، فقال له الصميل : « قد قتل ابن شهاب وقتلت عامرا والزهرى ، هى والله لك ولولدك الى الدجال . . من هذا ينازعك !! » ثم غادره بعد أن فرغ من طعامه ، واضطجع يوسف ، وسرح فى أودية من الأحلام

العذاب .. وبينما هو كذلك اذ صاح صائح : « رسول من قرطبة » .

اتخذ عبد الرحمن أهبة الرحيل الى بلاد الجزيرة ، وأقبل عليه البربر فتعرضوا دونه ، ففرق فيهم ما كان معه من مال على أقدارهم ، وأعانه تمام فلم يمنعوه ، ولما صار بالمركب أقبل عات منهم لم يكن قد أخذ شيئاً فتعلق بالحبل يريد الصعود الى عبد الرحمن وربما أراد أذيته ، فدفعه واحد من أصحابه وضرب يده بالسيف فقطعها ، وسقط الرجل في الماء ، ويبدو أن البربر قد ساءهم ذلك ونقموا على عبد الرحمن وودوا لو فتكوا به .. ولكن هيهات .

رست السفينة بعد أن أعانتها الريح بساحل البيرة في ثغر المنكب Almunecar في إحدى أمسيات ربيع الآخر سنة ١٣٨ (سبتمبر سنة ٧٥٥) وأقبل أبو عثمان وعبد الله بن خالد يستقبلان سيدهما ، وأنزله الأول في داره بقريّة طرش Torrox التي أضحت القيادة العامة لجيش عبد الرحمن ، وأتاه يوسف ابن بخت وجدار بن عمرو المدحجى من أهل رية وعاصم بن سلامة الثقفى وأبو عبده حسان بن مالك وأبو بكر بن الطفيل واختلف الناس اليه .

وتغلب عبد الرحمن على خليفته يوسف بالبيرة ، وأتى الخبر الى الأمير ، فاستثار الصميل فقال : « خطب جليل والرأى أن نقطع اليه من فورنا هذا بمن معنا من الناس ، فاما قتلناه واما شردناه ، فيهرب فان هرب لم يستقلها أبدا » ولكن يوسف كان مترددا فلم يأخذ برأى الصميل ، وقال له نفر آخر من أصحابه ان « الرجل لم يظهر طلب سلطانك ، وانما جاء يطلب معاشا وأمنا ، فان عرضت عليه المصاهرة وأن توسع عليه الفيته مسرعا » . فعدل يوسف عن رأيه واتخذ أهبته للمسير الى قرطبة .

اتجهت نية يوسف الى مراسلة عبد الرحمن في أمر الصلح

فأرسل اليه وفداً من عبيد بن على الكلابي وهو سيد من سادات قيس وخالد بن زيد وهو أسباني الأصل وكان كاتب يوسف ومولاه عيسى بن عبد الرحمن الأموي الملقب بتارك الفرس وكان على أرزاق الجند . وبعث معهم بكساء وفرسين وبغلين ووصيفين وألف دينار ، وكتب الى خصمه يذكره باصطناع آبائه لجذ يوسف عقبة ابن نافع ولأهله ، ويدعوه الى العهد والتوسعة عليه . . ولكن السفارة لم تنجح ، ولم يك بد من الاشتباك المسلح .

أقبل الشتاء وحملت الأنهار وصعب أمر الحرب ، وأخذ قبائل العرب من اليمانية وناس من البربر يغدون اليه ، فأجابته اليمن وقضاعة بأسرها ، ومن أهل الأردن خيارهم ، وأتاه نفر من قيس وهم جابر بن العلاء بن شهاب وأبو بكر بن هلال العبدى والحسين ابن الدجن العقيلي ، وانضم اليه من ثقيف تمام بن علقمة الثقفي وعاصم العريان وأخوه عمران .

وسار عبد الرحمن الى رية فبايعه عاملها عيسى بن مساور ، ثم الى شذونة فبايعه عاملها غياث بن علقمة ، ثم الى مورور فبايعه عاملها ابراهيم بن شجرة البرنسي ، واستمر حتى أتى اثبيلية حيث جند حمص فدخل في طاعته أبو الصباح بن يحيى اليحصبي رئيس اليمانية بفربي الأندلس ، كما أطاعه حيوة بن ملامس الحضرمي (١) من سادات اليمن ، وتثايل الناس اليه وفي قسرية قلنبيرة من طشانة Tocina بكورة اشبيلية عقد قواده ، ولما اكتمل عدده سار يريد قرطبة .

بدأ النضال في أوائل ذي الحجة - مايو - في موضع لا يعد كثيراً عن طشانة وكان الوادي الكبير وهو نهر قرطبة حاجزا بينهما ، فتناوشا أياماً ، ثم ضاق أصحاب عبد الرحمن من قوات الرقت والقتال لم يبدأ بعد . ورأى فتى أمية أن يأخذ قرطبة وقد تركها

(١) ينطق هذا الاسم حياة بن ملامس وهو حضرمي أو مدحجي .

يوسف ، فأوقد نيرانه ليلاً ، وسار في جوف الظلام وبينه وبينها خمسة وسبعون ميلاً ، فلم يتحرك الا قليلاً حتى أتى خبره الى يوسف ، فأصبحا كفرسى رهان والنهر بينهما . . ولما رأى عبد الرحمن عدم الجدوى أمسك عما انتواه ، وانتظر نقصان النهر وعسكر ببابش وأمامه يوسف بالمسارة (١) .

كان يوم الخميس ٩ ذى الحجة - ١٣ مايو سنة ٧٥٦ - هو يوم الوقوف بعرفة وفى الغد يضحى الناس أضحياتهم ، وتراسل الخصمان فى الصلح ، وأظهر عبد الرحمن قبوله فابتهج عسكر يوسف وذبحوا ذبائحهم . ولكن عبد الرحمن كان يبيت نية مغادرة ، فخاطب جنده وقال : « انا لم نجىء للمقسام ، وقد دعانا هذا الرجل الى ما علمتم وعرض ما سمعتم ورأى لرايكم تبع ، فان كان عندكم صبر وجلد وحب للمكافحة فاعلمونى ، وان يكن فيكم جنوح الى السلم والصلح فاعلمونى » . فأجمعت اليمن بأسرها على الحرب ، وكتب عبد الرحمن الكتائب وجند الأجناد ، وجعل على خيل أهل الشام عبد الرحمن بن نعيم الكلبى ، وعلى رجالة اليمن بلوثة اللخمى من أهل فلسطين ، وعلى رجالة بنى أمية ومن جاءهم من البربر عاصم العريان ، وعلى خيل بنى أمية حبيب ابن عبد الملك بن عمر بن الوليد بن عبد الملك ، وعلى الخيل وخيل من صحبه من البربر ابراهيم بن شجرة البرنسى ، وناول أبا عثمان لواءه وانتظر حتى يسفر الصباح .

كان ليل ذلك اليوم ثقل الوطأة على نفس عبد الرحمن ، فالغد سوف يتقرر مصير ست سنوات من العناء والشقاء ، وسرح الشاب الصغير الذى لم يتعد عمره الخامسة والعشرين بعد فى وديان بعيدة تجاوز بكثير ذلك المعسكر الذى باتت نيرانه على الجانب الآخر من النهر . . وما أشبه اليوم بيوم مرج راهط ، فقبل نيف وسبعين

(١) أو الصارة أو المصاراة وما بالثن هو الاسم الأصح .

عاما كان جده مروان قد خرج مع قبائل كلب الى قتال الضحاك ابن اقيس الفهرى ليعيد دولة بنى أمية بعد أن تداعت عليها عوامل الزمان بوفاة يزيد بن معاوية ، وكان عبد الله بن الزبير في عصابة من أهل المدينة وشباب الحجاز قد استطاع أن يجعل دولة بنى أمية لا تتعدى حدود دمشق وبلاد الأردن . ولكن مروان انتصر وخسر الضحاك ومعه - كما يروى - سبعون ألفا من قيس . . . وسأل عبد الرحمن عن اليوم فقيل له انه يوم عرفة ، فقال كالحالم : « اليوم يوم عرفة ، وغدا الأضحى والجمعة ، وأموى مع فهرى . . أرجو انها أخت يوم مرج راهط » (١) .

كان القتال شديدا في الصباح ، وكانت قيس مع قبائل مضر قد اجتمعت الى يوسف بفضل رئيسها وسيدها الصميل بن حاتم فرتب جيشه وجعل على خيل الشام ومضر كلها عبيد بن على الكلابى وعلى الرجالة كنانة بن كنانة وجوشن بن الصميل بن حاتم وعبد الله بن يوسف الفهرى وعلى خيل غلمانه وصنائعه من البربر خالدا سودى أما اليمن وهم أصحاب عبد الرحمن فكانوا يتحرقون شوقا للثأر ليوم شقنده الذى انكسروا فيه كسرة شنيعة .

ونظر بعض اليمانية الى بعضهم يتأملون هذا الفتى الجرىء الذى راض بلاد الأندلس ، فوجدوه يقاتل قتال الشجعان الأشاوس ، ولكنهم قالوا : « غلام حدث فما يؤمننا أن يطير على هذه الفرس فنهلك » . وكان عبد الرحمن فى شغل عنهم بالحرب وبالطعان والضرب ، ولكن واحدا من مواليه الأوفياء أخبره بمقالة القوم ، فنادى أبا الصباح وهو رئيسهم وقال له : « ليس فى عسكرنا بفل أوفق من بفلك ، وأن هذا الفرس يقلق تحتى فلا أقدر على ما أريد من الرمي من قوسى ، فخذ فرسى وهات بفلك ، وانى أحب أن تكون تحتى دابة تعرف أن حال الناس » (٢) ، وكان بغلا أشهب

(١) يروى هذا الحديث بصورة مختلفة بعض الشيء فى كتب ماخري ،

(٢) كذا فى « اخبار مجموعة » .

قد أبيض . وأنصرف عبد الرحمن ونسى نفسه في المعصية ، وأفاق بعد ساعات وكانت الشمس قد ارتفعت وحمى وهيجه ، ولم يشعر الفتى إلا وبدر الأمين وخلصة أهله ومواليه لقد أتوه بالنصر .

دخل الداخل قرطبة في يومه ، وكان أصحابه في حال شديدة من التعب والاعياء فنزلوا على مطابخ يوسف يأكلون ، وبعد أن امتلأت بطونهم انصرفوا إلى النهب والفنيمة وتجراؤا على حرم يوسف وأهل بيته وعياله . وخاطبت ابنة يوسف قاهر أبيها : يا ابن عمنا أحسن كما أحسن الله اليك . فأمر عبد الرحمن واسترد ما نهبه الناس وأعادته إلى أهله ، وأعجبت الفتاة بفتى أمية الشاب ، وأهدت إليه واحدة من جواربها اسمها حلل . ثم دخل عبد الرحمن الجامع فصلى بالناس ، ووعدهم في خطبته بالخير والعمل الصالح ، فسكن الجميع واطمأنوا إليه .

لحق يوسف بماردة ثم طليطلة ، ولحق الصميل بشوذر من كورة جيان ، ثم اجتمعوا في البيرة ، واستخلف عبد الرحمن أبا عثمان على قرطبة وخرج متوجها للقاء القوم ، فانتهر أبو زيد عبد الرحمن ، ابن يوسف الفرصة ودخل قرطبة وقبض على أبي عثمان ووقعت في يديه بعض جرم عبد الرحمن ، فعاد إليها أميرها مسرعا وقواها ثم ارتد لحرب يوسف .

كان الحصار الذي ضربه عبد الرحمن على يوسف والصميل بالبيرة شديد الوطأة ، فتراسلا وإياه في الصلح ، وكتب الكتاب في صفر سنة ١٣٩ هـ ، على أن يصير عبد الرحمن ومحمد ابنا يوسف الفهرى رهينتين بقرطبة حتى تهدأ الأمور ، وأقبل الأمير ويوسف عن يمينه والصميل عن يساره حتى دخل مدينته ، ونزل يوسف بمنزله وهو بلاط الحسر (١) شرقي قرطبة ، ونزل الصميل داره بالربض من نواحيها . . وصفا الملك لعبد الرحمن ، وكان عليه الآن أن يستريح من عناء السنين .

(١) الحر بن عبد الرحمن الثقفي والى الأندلس ٩٧ : ١٠٠ هـ .

الفصل السادس

×

شروق أمية

عبد الرحمن يستقر بقرطبة - الأمويون
يهرعون الى أمير الأندلس - سارة القوطية
تأتى الى عبد الرحمن - يوسف الفهرى
ينقض العهد - مصرع يوسف والصميل -
الجلالة يهادنون عبد الرحمن - سقوط
أربونة ونهاية ملك المسلمين وراء البرانس
- ثورة اليمانية بزعامة عبد الفافر اليحصبي
- حيوة بن ملامس - عودة الفهريين الى
الثورة بزعامة هشام بن عترة - الصلاء
ابن مغيث يرفع الرايات السود ويعلن
الطاعة للعباسيين - عبد الرحمن يتنصر في
قرمونة سنة ١٤٦ هـ .

((عرضناه المسكين للقتل))

الحمد لله الذى جعل بيننا

وبين هذا من عدونا بحرا !!))

أبو جعفر المنصور

×—————×

استقر عبد الرحمن بدار الامارة ذلك القصر العتيق الذى يرجع الى عهد القوط ، وانصرف اول الأمر يدعوا الى بنى العباس وأبى جعفر المنصور (١) ، وكان عام ١٤٠ هـ علما هادئا فى حياة عبد الرحمن بعد سننى الشقاء التى مر بها منذ قضى جده هشام . وفى تلك الأثناء كان الأمير قد رزقه الله طفلا جميلا من جاريته الحسناء حلل التى أسبغت عليه وعلى وليدها من حسانها الشىء الكثير واشتد فرح عبد الرحمن وسروره فأسماه هشاما تيمنا باسم جده العظيم .

وكان سرور عبد الرحمن لا يقدر حين وفد عليه فى ذلك الحين. أهل بيته من بنى أمية ومن بينهم عبد الملك بن عمر بن مروان « قعد بنى أمية » (٢) ، وكان عبد الرحمن يحله ويجعله فى مقام الوالد ، كما دخل عليه جزى بن عبد العزيز بن مروان وكان رجلا

(١) سوف يرد السبب الذى من أجله دعا عبد الرحمن للعباسيين بعد .

(٢) أى أقرب الفروع الى الأصل .

خيرا فاضلا قد سلك مسلك أخيه الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز ،
ودخل عليه في زمان سابق حبيب بن عبد الملك بن عمر بن الوليد
ابن عبد الملك ، وكان قريبا الى قلب عبد الرحمن وبكاه بكاء مرا حين
توفاه الله . . . ودخل عليه من الأموية وبنى مروان آخرون وآخرون .

وأجل عبد الرحمن جائزة من ناصروه في أيام محنته ومنحوه
عطفهم وحنانهم وقت أن امتنع عنه عطف الناس وحنانهم ، ولن
نتحدث عن بدر فان الرجل كان هو القائم بأمر دولة عبد الرحمن ،
وكان حاله هو حال بنى برمك في بلاد المشرق . ولم يتخذ الأمير
وزيرا ، وإنما جعل صاحبيه وهما أبو عثمان عبيد الله بن عثمان
وعبد الله بن خالد في مقام المشاورة والموازرة ، كما كانا أول كتابه ،
وولى حجابته تمام بن علقمة فظل حاجبه الى أن مات .

وعادت بعبد الرحمن ذاكرته الى أيام الطفولة السعيدة حين
دخلت عليه ذات يوم سارة القوطية التي لقيها منذ سنين بعيدة وهو
صغير ناعم في قصر جده هشام ، وكانت سارة قد مات عنها زوجها
وقت قدوم فتى أمية الى بلاد الأندلس ، فتنافسها اثنان من أصدقاء
عبد الرحمن هما حيوة بن ملامس الحضرمي وعمير بن سعيد
اللمخي ، فسعى ثعلبة بن عبيد الجذامي عند الأمير حتى قدم
عميرا على حيوة ، وكان الرجل نعم الزوج لابنة الملوك ، وكان أولادهما
من أشرف العرب وسادتهم في بلاد الجزيرة (١) وكان من عادة
سارة انها تاتي الى قصر الإمارة كلما حلت بقرطبة ، وكان الأمير
ينزلها على الرحب الواسع والكرم الزائد . . . ولطالما كانت سارة
تقضي ساعات طويلة مع ولد عبد الرحمن وهي تداعبهم وتناغيهم ،
وكانهم بعض ولدها قد خرجوا من جيب آخر .

(١) من أحفاد سارة النابيين أبو بكر بن القوطية المؤرخ صاحب كتاب
« تاريخ افتتاح الأندلس » وهو من المصادر الهامة التي رجعنا إليها في الترجمة
لقصر قرش .

كانت بلاد الجزيرة حين وطئتها قدما الداخل تموج بالفتن
التي قامت بين العرب والبربر وبين القيسية واليمانية وبين أهل
البلد وأهل الشام وكانت المجاعة قد أكلتها أيام ولاية يوسف
الفهرى ، وانتشر الوباء وأصبح القاصى والدانى لا يأمن على روحه
أو عرضه أو ماله ، فإن طموح الرؤساء والزعماء من عدنان وقحطان
كان لا يأبه لصالح المجموع . وكان الفرنجة فى الشمال قد اشتد
ساعدهم ، وتكالبوا على أربونة ذلك الثغر الإسلامى العزيز الذى
ظل يناوئهم عشرات من السنين ، وكانت فلول القوط بقاصية
جليقية قد استطاعت أن تقيم دولة امتدت إلى الجنوب ، وهددت
معاقل المسلمين فى بلاد الأبرة (Ebro) والدويرة (Duero) ،
وكاد يضيع ما أنشأه موسى وطارق من فتوحات .

لما تداعى الحصار الذى فرضه قارلة على أربونة عاد موروونت
دوق مرسيلية وكان هاربا إلى مسرح الأحداث « وعقد الخناصر
مع العرب » واتى قارلة من بلاد الشمال ودخل مرسيلية سنة
٧٤٩ م معلنا انتهاء حكم موروونت ، وبذلك زال حليف العرب
فى بلاد الرذانة ، ولكن قارلة لم يجرؤ على محاربتهم بعد أن اكتوى
بنارهم يوم البلاط ، واكتفى بذلك وكر راجعا إلى بلاده . ولما
استتب الأمر ليوسف فى بلاد الأندلس أرسل ولده عبد الرحمن
إلى أربونة ، لكن نصارى البشكنس فى جبال البرتات كسروا هذا
الجيش وذلك سنة ٧٤٧ م ، ثم انشغل يوسف بأمر عامر العبدري
والحباب الزهرى ثم دخـول الداخل ، فانتـهز بـيبين (Pippin)
وهو خليفة قارلة وولده الفرصة ، وكان البابا قد منحه تاج
الفرنجة فقوى أمره ، وتوجه إلى حصار أربونة وكان ذلك سنة ١٣٣ هـ
(٧٥٢) ، وواجه الملك مقاومة شديدة من حامية المدينة التى
صبرت على الحصار بفضل حماسة أميرها الشجاع عبد الرحمن
ابن علقمة اللخمى « فارس الأندلس » ، ولما رأى بيبين عزم جدوى
الحصار ارتد إلى بلاده ، بعد أن ترك مكانه حليفا قويا من أمير

القوط هو انسيموند (Ansemundus) ، ولكن العرب اكنوا له ، وخر انسيموند صريعا وانكسر الحصار .

وكان من الممكن أن يتشجع العرب بعد امتناع أربونة عن الفرنج ، كما لم يكن ببعيد أن يعيد العرب سابق نشاطهم في اقطانية ، ولكن حروب العصبية انهكت قواهم ، وبخاصة لما غلبت اليمانية ، ورجع فارس الأندلس الى الشمال يجرر اذبال الخيبة ، ثم عاجله اعوان يوسف بالقتل ، وفي ذلك الحين كان يبين قد اعاد حصاره لأربونة ، وهب عبد الرحمن لانقاذ المدينة فسير اليها قائدا تسميه المصادر النصرانية سليمان وكان ذلك في سنة ١٤٠ هـ (٧٥٨ م) ولكن عصابات البرتات (Pyrenees) فتكت بالجيش وقائده في ثنايا الجبال وأوعارها (١) ، ولربما جهز عبد الرحمن حملة جديدة أو خرج بنفسه الى هذا الثغر النائي درع الأندلس في « الأرض الكبيرة » (أوروبا) ولربما خرج أيضا الى عصاة الجلالة ليردهم الى الطاعة ... لولا انه وصل الى سمعه خبر مشئوم .

كان يوسف قد دخل في ركاب الأمير وافدا كريما ، لم تهن له حرية ولم يؤخذ من ماله ولم تدس له كرامة ، فقد ناضل نضال الشجعان ، غير ان أيام الدهر ليست كلها سواء . وكان عبد الرحمن قد جعله في بلاط الحر وهو قصره المنيف بشرقى قرطبة وكأن حاله لم تتغير . ولكن يوسف وقد صار شيخا كبيرا لم يذهب عنه ذلك الطموح الذي أباد من الأندلس أخضره ويابسه ، وكانت بقرطبة بيوتات من بنى هاشم وبعض قبائل إقرش وبنى فهر لم تجد من عبد الرحمن ما كانت تطمع أن تجد منه وقد أعاد أميرها والصميل الى قرب ما كانا عليه في الماضي بمنازل العز والسيادة ... ولعبت الدسائس دورها ، حتى لم يجد يوسف في ذلك العام الذي

(١) ربما كان سليمان هذا هو سليمان بن شهاب الذي وجهه يوسف في حملة فاشلة هلكت على أيدي البشكنس قبل دخول عبد الرحمن بقليل .

كانت تناضل فيه أربونة خيل الفرنج الا أن يرفع راية العصيان (١) .
واستغرب يوسف من الصميل ذلك الموقف الذي اتخذه ،
فالرجل والمؤرخون يشهدون لم ينكت عهداً ، ولم يخرج على
طاعة ، بل ظل على سابق اتفاقه مع الأمير ، ورد على طلب يوسف
بأن قال : « حسنا والله قد قضينا الزمام ولا والله نخلعه » .
فكتب يوسف أهل البلد وأهل ماردة ولقنت (Alicante) ،
فأجابوه وكان ذلك في سنة ١٤١ هـ ، وحل بماردة التي سبق أن
لجأ إليها إبان النضال ، وبعد أن جمع الجموع وحشد الحشود
سار إلى لقنت ثم إلى أشبيلية وكان عليها عبد الملك المرواني
فاجتمع إليه ناس من حمص وانحاز إليه أهل البلد وانتفخ عسكره
على قول المؤرخين حتى صار عشرين ألفاً .

خرج الداخل من قرطبة إلى حصن المدور في طريقه إلى يوسف ،
وكانت نية الأمير أن يأخذه من الشمال بينما يأخذه عبد الملك من
الجنوب فيصير بين شقي الرحى ، فاتجه يوسف أولاً إلى المرواني
لقلة عساكره وكاد أن يتم له ما أراد ، لولا أن أسرع عبد الله
ابن عبد الملك وكان على مورور إلى نجدة أبيه ، ودار قتال شديد
انتهى بانكسار يوسف وفرائده إلى فريش (Ferrix) ثم إلى
فحص البلوط ثم أخذ إلى طليطلة بينما تشتت أصحابه في وديان
الأرض .

ومضى يوسف في البلدان يطلب الأنصار في وقت قد انصرف
عنه الأنصار ، ولما اتاه الخبر في سنة ١٤٢ هـ بخلاف هشام
ابن عذرة (٢) وإلى طليطلة وهو من أهل بيته الفهريين أراد النصر

(١) يقال ان النزاع بين يوسف وعبد الرحمن كلن على أملاك وعقار وان
الآخر لم ينصفه .

(٢) هشام بن عذرة بن عبدالله الفهري وأبوه كان والياً على الاندلس
سنة ١٠٧ هـ .

منه . وبينما هو على عشرة أميال من قصبة القوط في الزمن الخالي لقيه عبد الله بن عمر الأتصاري فلما عرفه قال لأولاده ومن معه : « هذا الفهري يفرقد ضاقت عليه الأرض ، وقتله الراحة له والراحة منه » . وكم كان سرور عبد الرحمن لهلاك أهل الفتنة وزوال أمرهم ، وكم كان حزنه على هذا الجندي الشجاع الذي ناضل الفرنجة والجلالة زهرة شبابه وأيام حياته . . . ولكن عبد الرحمن حين أتاه رأس غريمه استجاب لأحوال عصره وظروف زمانه وأمر فضم إلى رأس ولده عبد الرحمن وكان مرتبها عنده ، ووضعها على قناتين مشهرتين بباب قصر الإمارة .

والصميل !! ها هو قد حان حين سيد سادات قيس . . انه لم يشارك في فتنة ولكن عبد الرحمن سأله قبل أن يطارد يوسف الفهري عنه وقال : « لم يهرب حتى استطلع رأيك ، وقد كان لنا عليك النصيح » . وذهبت بالأمير الظنون وحسب أن الرجل قد بيت أمرا حين امتنع عن أجابته ، فأمر به فحبس واستمر كذلك حتى مات ، فقد دس عليه عبد الرحمن من خنقه خوفا من ثورة قومه . اذا طال عليه الحبس أو قتل بمشهد منهم ، ثم دفعه إلى شيوخ مضر فواروه الشراب (١) .

وأبو الأسود محمد بن يوسف . . لقد رق له قلب الأمير ، وأشفق عليه لصفرة وشبابه وتركه في الحبس ، ولكنه فر وقصده إلى طليطلة معقل عصبية أبيه فتحصن بها ، فسير إليه الأمير تمام ابن علقمة ، فحاصر المدينة وشدّد الحصار حتى سلمت ، وجرى إلى بابي الأسود إلى قرطبة ، وأعيد إلى محبسه . ولكن أخاه الأصغر أبا القاسم فر من المدينة قبل أن تستسلم لجيش الإمارة ، وسيكون له دوره عما قريب .

وارتاح عبد الرحمن فقد هلك يوسف ومات الصميل وانتهت

(١) قيل لما خنق كان سكرانا .

سطوة القيسيين وكان عليه الآن أن يتفرغ للنصارى الذين وغلوا في بلاد المسلمين أيام الفتنة الكبرى ، فإن فافلة بن بلاى أثر السلامة وأنشغل باللهو والصيد ، ومات بعد سنتين ودفن مع أبيه بكانجاس Cangas وهي حاضرة البلاد ، ولم يكن له عقب فخلفه اذفونش Alfonso بن بطرة (١) Pedro دوق كنتبريه وهو زوج ابنة بلاى ، فانتهر ما جرى من نضال بين المسلمين وبعضهم البعض ، وبدأ الزحف جنوبا وشرقا وكانت بينه وبينهم مساحات واسعة من القفر والخراب ، فافتتحها وقتل من بها من المسلمين وكانوا قلائل . ولما حل القحط ببلاد الأندلس جلا كثير من المسلمين وغالبيتهم من البربر عن تلك الجهات ، وارتحل بعضهم الى افريقية ، فاشتد ساعد اذفونش ، واستولى على لك وليون وسلمنقة (Salamanca) (٢) واسترقة وابلة Avila وسقوبية (٣) Segovia ، وامتد ملكه من أعالي أرغونة حتى شاطئ المحيط ومن شارات (٤) وأدى الرمل Sierra Guadaramna حتى خليج بسكاي (Biscay) وكان ذلك وقت دخول الداخل ، ومات سنة ١٤٠ هـ (٧٥٧ م) . وخلفه ولده فرويله (Froila) ، وكان قاسسيا طاغية ، ولكنه لم يكن على غرار أبيه ، فهادن عبد الرحمن ، وصار يدفع اليه عشرة آلاف أوقية ذهب وعشرة آلاف رطل فضة وعشرة آلاف فرس وعشرة آلاف بغل وألف درع وألف رمح وألف سيف (٥) . وبذلك اطمأن عبد الرحمن الى الجبهة الأسبانية ، وتأهب للخروج الى الفرنج ، وبينما هو كذلك اذا أتاه الخبر بسقوط أربونة .

(١) بطرة أى بطرس (Petrus) .

(٢) أو سلمنقة أو طلمنقة .

(٣) أو شقوبية .

(٤) شارات أى جبال .

(٥) هذا فى رواية وواضح أن فيها شيئا من المبالغة .

كان صبر المسلمين في المدينة لا يقدر وكان (بيبين) قد حاصرها بجحافل البرابرة ومن شايعهم من نصارى اقطانية والقوط الهاربين بنواحي سبتمانيا ، وكان المسلمون قد ضعف جانبهم بعد الحصار المتكرر من جهة الفرنج ، ولم تصلهم امداد من عبد الرحمن لانشغاله بثورة يوسف الفهرى ، ولربما صبر المسلمون وقتا آخر كعهدهم في الماضي ، ولكن النصارى من اهل المدينة وكان المسلمون قد آمنوهم على الروح والعرض والمال لم يلبثوا أن غدروا بهم ، فكاتبوا ملك الفرنج على أن يسلموا اليه المدينة بشرط ان يتركهم احرارا فيها ويسـيروا بعرف القوط وأجابهم الملك ... وفي ذات يوم وكانت الحامية غافلة عما يدبر ازاءها اذا بأهل المدينة يهجمون عليها ويفتكون بنفر عظيم من المسلمين ثم يفتحون الأبواب للفرنج الذين تولوا أمر الباقي .

وقعت الصدمة على قلب عبد الرحمن كوقع الحسام الصلد على الجسد الطري وبينما هو الآن يتجرع آلامه في صمت ، اذ جاءته أنباء أخرى بخروج أبي القاسم محمد بن يوسف الفهرى الذي سار الى رزق بن النعمان الفسائي بالجزيرة الخضراء ، وكان على مودة من أبيه فحشدا الجموع واستوليا على شذونة ثم اشبيلية ، فبادر الأمير اليهما ، ودخل المدينة ظافرا بعد ان قتل رزقا ، ولحق أبو القاسم بشذونة وكان في اعقابه تلمام ، فكسر جموعه وجعله في الأسر بقرطبة وذلك سنة ١٤٣ هـ ..

ظلت اشبيلية سنين أخرى من حياة عبد الرحمن معقلا للعصاة ودعاة الفتنة وأهل الخلاف ، وقد بدا ذلك منذ ثورة رزق ابن النعمان ، وكان الأمير ذا حكمة وتعقل حين قضى باشبيلية شهورا حتى تمكن من أمرها . وما كاد يستقر بقرطبة حتى بدأت أولى الثورات الهامة بعد ثورة الفهرين وكانت هذه المرة من جهة اليمانية .

لم يكن هدف عبد الرحمن حين قدم الى الأندلس قبل سنوات أن يقيم حزبا مكان حزب أو أن يقدم قبيلة على آخر ، وإذا كان قد استعان باليمانية في نضاله ضد يوسف الفهري فلم يكن ذلك للأخذ بثأر شقنده سنة ١٣ هـ ، وإنما كان يرمى الى هدف أبعد من هذا وكانت سياسته بعد أن توطد له الأمر بالأندلس أن يقيم حكومة قوية والا يقدم حزبا على آخر ، لكنه اصطدم في هذه السياسة بعدد من العقبات .

كانت الثورة هذه المرة بزعماء عبد الغافر بن حميد اليحصبي (١) الذي أراد أن يباغت قرطبة فاستولى على ضواحيها ، وخرج اليه عبد الرحمن ، فرأى الثائر ان الفرصة قد سنحت أمامه لاقتحام المدينة وقد غادرها من الجنود خيرتهم ، ولكن ظنه خاب فقد أسرع أميرها الى نجدها قبل أن يمكر به عبد الغافر وانهزم الثائر بوادي قيس وفر الى لقنت فتبعه غريمه وهزمه مرة أخرى بوكبله بالأغلال .

وكم كان صعبا على عبد الرحمن أن يحتمل غدر الأصدقاء فان حيوة بن ملامس الحضرمي غضب من عبد الرحمن ، وهما لأنه عارض في زواجه من سارة القوطية وكان رؤساء الأندلس يطمعون فيها لأنها حفيذة غيطشة ولما كان في حوزتها من مال وعقار وما كانت تتمتع به من جمال . فثار بأشبيلية وتغلب على استجه واكثر بلاد الغرب ، وتوافقت اليه الجموع فقاتله عبد الرحمن أياما وكان قتاله شديدا ، حتى ان فتى أمية كاد أن ينهزم ، ولكنه صبر الى أن تعب أصحاب حيوة ولحقهم الأعياء والملل فانهزموا ، ومضى حيوة الى ناحية فريش ، فكتب الى الأمير في العفو واجابه الأمير .

أضحت ولاية طليطلة لحبيب بن عبد الملك القرشي بعد أن تأخذ عبد الرحمن تمام بن علقمة حاجبا له ، فأثار هذا هشام

(١) في بعض الكتب عبد الغفار .

ابن عذرة وهو واليها قبل تمام ، وكان هشام من ذات الأسرة التي ناضلت عبد الرحمن وستظل تناضله دهرًا طويلا ، وساعده في هذا بعض انصار أبيه القدامى ، فقد كان عذرة بن عبد الله الفهرى أحد ولاة الأندلس قبل عبد الرحمن بزمن بعيد . ووافق هشاما في خلافه نفر من الساخطين على عبد الرحمن ، أظهرهم حيوة بن الوليد التجيبى (١) وعثمان (٢) بن حمزة بن عبيد الله ابن عمر بن الخطاب والأول من اليمن والآخر من قريش ، فخرج عبد الرحمن الى طليطلة في عام ١٤٥ هـ وحاضرها حتى أضر الحصار بالمدينة ، واضطر واليها الى أن يصلحه ويسلمه ولده رهينة عنده فأنصرف عنه .

لم يكد عبد الرحمن يستقر بقرطبة حتى علم بأن هشاما قد عاد الى سابق نفاقه ، فغزاه في السنة التالية ودعاه الى الرجوع عن خلافه ، فلم يستمع اليه ، ولما يئس عبد الرحمن من أمره أمر بابنه الرهينة ف ضرب عنقه ، ثم جعل الرأس في المتجنيق ورمى الى أبيه فاحتمل فيه ثكلا ، ولكن طليطلة لم تسلم فرجع عبد الرحمن عنها ثم تجهز من جديد للخروج اليها لولا أن وصله أن الأعلام السود قد رفعت وإن القوم بساحل الأندلس قد ارتدوا الى طاعة بنى العباس .

كان عبد الرحمن رغم ما صار اليه من إمارة الأندلس لا يزال يذكر تلك الأيام السود التي مر بها قبل أن تصير اليه الأمور في ذلك الصقع النائي ، وكثيرا ما كان يحز في نفسه أن تفلت من الدولة الأموية تلك البقعة الواسعة التي تمتد من تخوم الصين حتى البحر المحيط والتي ترفرف عليها الآن أعلام بنى العباس . ولكن عبد الرحمن حين

(١) أو اليحصبي .

(٢) أو هشام .

استقر بالأندلس صار يدعو لأبى جعفر (١) وقد يحار المرء في ذلك ، ولكن الحقيقة أن عبد الرحمن لم يدع للمنصور عن اذعان وطاعة ، وإنما كان يخاف أن تنتقص البلاد وهي لم تستقر أمورها بيديه بعد ، كما لم تغب عن ناظريه في تلك الحقبة من تاريخه ، ما جرى من ثورة عامر العبدري والحباب الزهرى التى كادت أن تثل دولة يوسف قبل أن يكون هذا من نصيبه . ولكن نفرا من بنى أمية ومواليهم المخلصين الذين ذاقوا من بنى العباس الأمرين وأظهروهم عبد الملك المروانى « شهاب آل مروان » أشاروا على عبد الرحمن بأن تقطع الخطبة لبنى العباس لسوء صنيعهم ، فى بنى أمية ونقضهم الايمان والعهود ، وخاطبه عبد الملك فى جرأة وحماسة تموج فى بحار من الوجد العميق : « ان لم تقطع الخطبة لهم قتلت نفسى » . وتم لعبد الملك ما أراد .

كان العلاء بن مغيث اليحصبى (٢) من أشرف أهل اليمن فى كورة باجة ، وقد أداه طموحه الى أن ينحاز لبنى العباس فعبر البحر الى افريقية ومكث هناك يسيرا ، ثم عاد ومعه سجل المنصور ، ونزل بساحل باجة فى سنة ١٤٦ هـ (٣) رافعا الرايات السود وداعيا لأبى جعفر المنصور فأجابته اليمنية والفهرية وأهل مضر ، كما انحاز اليه أمية بن قطن بن عبد الملك بن قطن الفهرى وجده هو وأبى الأندلس الذى قتل على أيدي الشاميين اصحاب عبد الرحمن وأيده غياث بن علقمة اللخمي وهو سيد من سادات اليمن وكان معروفا بتقلبه بين معسكر عبد الرحمن ومعسكر أعدائه .

فزع عبد الرحمن الى الثوار بحث أن استفحل أمرهم وصارت

(١) أبو جعفر المنصور المؤسس الحقيقى للدولة العباسية معاصر عبد الرحمن ونديده فى الشهرة تولى الحكم بعد أخيه السفاح ١٣٦ - ١٥٨ .

(٢) ويذكر البعض أنه من حضرموت أو جذام .

(٣) يجعل ابن خلدون ذلك سنة ١٤٩ هـ وهو خطأ .

أليهم صولة وسيادة في غربى الأندلس وكثرة أهله من اليمانية .
واضطر عبد الرحمن الى أن يسير بدرا في دفعة من أصحابه الى
غياث وسار هو في العدد الأوفر يريد العلاء ، وبينما هو في طريقه
أتاه الخبر بالصلح بين مولاه الأمين وغياث فقوى ساعده أما ابن قطن
فقد اختلف مع الثوار فوضعوه في الأصفاد وفيما بعد سوف يمن
عليه عبد الرحمن ويطلقه .

وصل عبد الرحمن الى قرمونة فتحصن بها وضرب الثوار عليه
الحصار وكان الحصار شديدا لأن الثوار هذه المرة كانوا مؤيدين من
قبل الخلافة ومعهم تفويض رسمى من المنصور بذلك وكان الاعداد
لهذه الحركة قد استمر وقتا طويلا وتفرق عن عبد الرحمن أكثر
أصحابه وتركوه في سبعمائة من مواليه والمخلصين له من أصحابه
ولما شق الأمر عليه أمر بالنار فأوقدت وبأغماد السيوف فأحرقت
وصاح عبد الرحمن فيمن معه : « اخرجوا معى الى هذه الجموع
خروج من لا يحدث نفسه بالرجوع » ودارت رحى المعركة .

أسفر النضال بين بنى أمية وبنى العباس بقرمونة عن مصرع
الألوف من أصحاب العلاء لأن جنسود عبد الرحمن لم يلبثوا أن
انضموا اليه بعد أن مال ميزان الحرب في صالحه وأخذوا كل من
وجدوه منهم بالقتل ولما كان عبد الرحمن قد قاسى أشد المقاساة
في حربهم فانه قد خطرت في ذهنه فكرة جريئة أقدم عليها ليجعل
من هؤلاء مثلة لكل من تحدثه نفسه بالخروج على طاعته ، فأمر
بزعماء الفتنة فاحتزت رؤوسهم وقرطت الصكاك في آذانهم بأسمائهم
وأودعت جوالق وأوصى عبد الرحمن بعض التجار فعبرا بها الى
القيروان . . وكان فزع عمال بنى العباس هنالك لا يقدر .

العلاء !! ماذا كان مصيره ؟؟ لقد أمر الأمير بحشو رأسه ملحاً
وكافوراً وجعل معه لواء المنصور ووضع في سبط وبعث به مع
واحد من خاصته الى مكة في جملة الحاج فوافق أبا جعفر قد حج
بيت الله فوضعه على باب سرادقه . وارتاع المنصور وملاً قلبه
الحزن والأسى وإقال لما انتبه الى نفسه : «عرضناه المسكين للقتل .
الحمد لله الذي جعل بيننا وبين مثل هذا من عدونا بحراً !! » .

الفصل السابع



عثرات الطريق

القضاء على الثورة في طليطلة -
اليمنيون يثورون لمصرع العلاء - أبو الصباح
اليحصبي يعلن العصيان وعبد الرحمن
يفتك به - شقنا بن عبد الواحد يدعى في
أهل البيت ويثور على عبد الرحمن -
اليمنية يعودون إلى الثورة - مصرع
عبد الغافر وحيوة بن ملامس - نهاية أمر
الفاطمي .

((يا ثعلبية : هل لك في
فتحين في فتح !! قد استرحنا
من يوسف فاسترح بنا من
هـذا ، وتكون الأندلس
قحطانية)) .

أبو الصباح

×—————×

كانت الصدمة شديدة على بنى العباس في بلاد الأندلس ، فلم يحدث أن قاموا بفتنة بعد ذلك إلا بزمان طويل . ولكن الأمير واجه في السنين التالية فتنا أخرى كان القائمون بأمرها من اليمانية ومن بين أصدقائه الذين ناصروه في أيام محنته ، ثم انقلبوا عليه . . ولكن الأمير قبل أن يرد كيد الأصدقاء كان عليه أن يرد كيد الأعداء .

لم تكن الفتنة في طليطلة قد هدأت بعد ، وكان هشام بن عذرة لا يزال على عداوته ، فلما فرغ عبد الرحمن من أمر العلاء وصحبه وجه بدرا الى طليطلة وكان ذلك في سنة ١٤٧ هـ فشدد الحصار ، حتى لم يجد أهل المدينة بعد أن سئموا الحرب وتعطل أعمالهم إلا أن يكتبوه على أن يسلموه المدينة والزعماء الثائرين . وسبق ابن عذرة وحيوة بن الوليد وعثمان بن حمزة ، واقبل أن يدخل الركب قرطبة توقف بالحدى قراها ، وهناك ألبس الثائرون جباً من صوف وحلقت رؤوسهم ولحاهم وأدخلوا في سلال ، ثم حملوا

على الحمير ، وأتى بهم على هذه الحال الى المدينة حيث كان الصلب من نصيبهم ، وكتب الأمير الى البلدان يفتح طليطلة .

.وزادت بهجة عبد الرحمن في العام التالى حين جاءه رسوله من الشام وصحبته سليمان بكر ولده ، وان عدلت اخته العزيزة أم الأصمغ عن مفارقة ديار الألباء الى بلاد الجزيرة واتجه عبد الرحمن الى الجلالة وكان طاغيتهم قرويلة قد ثارت البلاد في عهده ثورات عارمة ، فانتهر عبد الرحمن الفرصة ، وبعث بدرا الى ألبة والقلاع فأرغمها على أداء الجزية وعادت كثير من المدائن هناك الى طاعة المسلمين .

ولكن عبد الرحمن لم يلبث أن عاد الى النضال من جديد ، فقد رفع اليمانية راية العصيان أخذا بثأر العلاء ، وقادهم في ذلك سعيد اليحصبي المعروف بالمطرى في لبلبة ، وشاركه أمره غياث بن علقمة بشذونة وسار المطرى يريد اشبيلية وهى قاعدة العرب وعصب اليمن وعليها عبد الملك المروانى الذى امتنع بها لقلعة عساكره وانتظر المدد .

وكان المطرى على وشك أن يأخذ المدينة لولا أن علم بمسير عبد الرحمن من قرطبة فارتد عنها الى قلعة رعوأق *Alcala Guadiara* وما لبث يسيرا حتى فرض عليه عبد الرحمن الحصار فلما اشتدت وطأته حاول أن يجد لنفسه طريقا بين الجيش المحاصر وجرت معركة كبيرة انتهت بمصرع المطرى وهلاك الكثير من أصحابه ولحق الباكون بالقلعة فاعتصموا بها وقدموا عليهم خليفة بن مروان اليحصبي وعاد عبد الرحمن ففرض الحصار حتى لم يجد الناس بعد أن فنيت أزوادهم ووهنت مقاومتهم الا أن يرأسلوه فى الصلح على أن يسلموه القلعة وأميرهم الجديد فأجابهم عبد الرحمن وخرب الحصن ورفع رأس خليفة على طرف سنان ، واتجه بعد ذلك الى شذونة ليستأصل بقايا الفتنة ، فاضطر أهلها الى أن يطلبوا الامان فأمنهم ووفى وعاد الى قرطبة وذلك سنة ١٤٩ هـ .

كان اليمانية قد أصابتهم ضربات شديدة من عبد الرحمن في
السنين الماضية وكان رئيسهم أبو الصباح بن يحيى اليحصبي
لا يزال على صفائه مع الأمير ولكن طموح الانسان وولاءه لأهله
وعشيرته كانا الجانب الأغلب عند أبي الصباح ، وصبر الرجل
سنين طويلة ولم يكن ليرضى بأية حال أن يخرج على أميره ، ولكنه
الآن وكان واليا على أشبيلية قد رفع عنها فلم يدم صبره طويلا .

وفعل الوشاة فعلهم في نفس عبد الرحمن ولربما بدرت من
أبي الصباح هفوة في الماضي حين قال لثعلبة بن عبيد الجذامي يوم
أن تغلب عبد الرحمن على يوسف الفهرى بالمسارة : « يا ثعلبة !
هل لك رأى في فتحين في فتح » ؟ فرد عليه الرجل مستغريا الأمر :
« وكيف ذلك » ؟ . أجاب : « لقد استرحنا من يوسف فاسترح
بنا من هذا وتكون الأندلس قحطانية » . ووصل الخبر الى سمع
عبد الرحمن بصوزة مختلفة فاستحلف ثعلبة ، ولم يجد الرجل
إلا أن يعلمه بما جرى فحفظها الأمير ولكن الى حين .

لما علم عبد الرحمن أن أبا الصباح قد تغير عليه وكان ذلك
سنة ١٥٠ هـ أرسل اليه تماما ملاطفا اياه ، حتى احتال عليه فقدم
به الى قرطبة وكان في أربعمائة من اتباعه وخاصته ولربما استقبله
عبد الرحمن أول الأمر استقبالا طيبا ، ولكنه لم يلبث أن عاقبه
فأغلظ أبو الصباح في الرد وثار عبد الرحمن وكانت ثورته شديدة
ولا نعرف بالضبط كيف قتل أبو الصباح فان المؤرخين يختلفون
في ذلك ولكنه على أية حال لاقى مصيره ولا يبعد أن يكون
عبد الرحمن قد عالج هذه المشكلة بمثل ما عالج أبو جعفر مشكلة
أبي مسلم الخرساني وكان قد لعب في تأسيس الدولة العباسية
دورا يشبه ذلك الدور الذي لعبه أبو الصباح في احياء الدولة
الأموية .

ولما علم عبد الرحمن بأن عبد الله بن خالد صهر أبي عثمان قد
سار الى أبي الصباح بعهدده انحرف عنه واعتزل عبد الله الأمور

ولزم بيته حتى مات ، وبذلك زال رأس اليمانية ومعضده في دار
الإمارة وانكسرت شوكتهم ولكن هذه الكسرة لم تكن الأخيرة .

لم يوفق الفاطميون وهم أولاد علي وفاطمة في إنشاء دولة لهم
إلا في أخريات المائة الثانية بعد الهجرة النبوية الشريفة وهي دولة
الإدارسة في بلاد المغرب وتنتسب إلى إدريس بن عبد الله
ابن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين،
ولكن بعض الأدعياء الذين انتسبوا على غير حق إلى بيت رسول الله
حاولوا أن يقيموا لأنفسهم دولا أخرى ، وقد استطاع البعض ذلك
والبعض الآخر لم يستطع .

كان شقنا بن عبد الواحد (١) وهو رجل من بربر مكناسة من
أهل لشدانية يشتغل في أول أمره فقيها يعلم الصبيان في كتاب
مبادئ النحو واللغة وعلوم القرآن وبعض صنوف الآداب ولكنه
سرعان ما ادعى في ولد فاطمة الزهراء وتسمى بعبد الله بن محمد
وانتقل إلى شنت بريه (٢) (Santa Maria) واجتمع إليه البربر
وكانوا أكثرية في تلك النواحي ورفع راية العصيان فاشتد أمره
وطار ذكره .

وكان شقنا على قدر كبير من الدهاء والمكر وسعة الحيلة ، وقد
ساعده طبيعة المنطقة التي تكتنفها الجبال وتغطي مساحة واسعة فيها
على أن يروغ في وسطها وبين ثناياها ، فكان إذا أمن أنبسط وإذا
خاف صعد . وسار إليه عبد الرحمن ففر أمامه ، فلما صعب أمره
عهد إلى والي طليطلة وهو حبيب بن عبد الملك فاستخلف على شنت
بريه سليمان بن عثمان بن مروان بن أبان بن عثمان بن عفان ،
ولكن شقنا نزل من الجبال ودخل شنت بريه وقتل سليمان

(١) أو شقيا أو سفين كما في « أخبار مجموعة » وما ورد بالتين هو الأكثر
شيوعا .

(٢) أو شنتبرية أو سنتبريه (Santebria) .

واستفحل سلطانه واستولى على ماردة وقوريه Coria ومدلين
والأراضى بين التاجة (Tagus) والوادی انه (١) ولم يجسد
عبد الرحمن الا أن يباشر الفتنة بنفسه .

غادر عبد الرحمن قرطبة فى سنة ١٥٢ هـ وانحاز شقنا الى
الجبال كعادته وأخلى حصنه شيطران ، فارتد عبد الرحمن لما رأى
عدم الجدوى ، لكنه قبل أن يبارح الجبهة جعل بدرا فى مكانه
سنة ١٥٣ هـ واستمر الدعى الفاطمى يروغ فى الجبال متجنباً لقاء
الجيش ثم عاد عبد الرحمن فى العام التالى ، وفرشقنا أمامه فسير
اليه أبا عثمان عبيد الله بن عثمان سنة ١٥٥ هـ ولكن العدو أفسد
عليه جنده وكان بهم عدد كبير من البربر وانهزم أبو عثمان وهلك
جماعة من بنى أمية فى ذلك النضال واستولى الفاطمى على أسلابهم
وهنا اعتزم عبد الرحمن أن يخرج اليه للمرة الرابعة وكان فى
جعبته سلاح جديد .

لم يكن كبير البربر فى شرق الأندلس واسمه هلال الميديونى
على علاقات طيبة مع شقنا فاستقدمه عبد الرحمن فى جملة أصحابه
سنة ١٥٦ هـ وجعله على بلاد الغرب ، وعهد اليه بأمر الفاطمى
الذى انسحب الى الجبال ، وكان عبد الرحمن فى أثره وكاد أن
ينتهى منه ، لولا أن وصله من قرطبة خبر غير سار .

. عادت اليمانية الى الانتفاض وكانت هذه هى المحاولة الأخيرة
من جانبها لاعادة سلطانها القديم ، فقد عاد عبد الفافر اليحصبى
وحيوة بن ملامس الحضرمى الى الخروج مطالبين بدم أبى الصباح
وانتهزا ما جرى من فتنة الفاطمى وخرج الأول بباجة وخرج الآخر
باشبيلية واستفحل أمرهما وانضم اليهما جمع كبير من البربر
واعتزما المسير الى قرطبة ليأخذاها فى غيبة أميرها ، وكان قد

(١) أو وادى يانه أو الوادى البائع .

استخلف عليها بدرا ، فعاد عبد الرحمن مسرعا لما اتاه كتاب
بدر للقاء الثوار .

نزل عبد الرحمن الرصافة تلك الضاحية الجميلة التي بدا
بنيانها في السنوات الأخيرة بالقرب من قرطبة ، وكانت قد كسيت
هي الأخرى بسور عظيم يقيها غوائل الزمن ، وتجهز للقاء القوم .
ويسأله شهيد بن عيسى بن شهيد (١) وهو أحد كبار رجال الدولة
« لو دخلت القصر واسترحت فيه الليلة » ... وقبل أن يكمل
الرجل كلامه قاطعه الأمير : « يا شهيد وما في راحة ليلة ان لم
نظفر بما بين أيدينا » . فلما أصبح توجه الى القوم ، والتقى بهم
على وادي منبس القريب وهالته جموع اليمن ومن شايعهم من
البربر ... عندئذ لم يجد الأمير الا أن يستعمل الحيلة .

استدعى عبد الرحمن مواليه والمخلصين اليه من البربر وقال
لهم : « خاطبوا بني عمكم وعظوهم واعلموهم أنه ان تغلب العرب
وقطعوا دولتنا فلا بقاء لهم معنا » . فلما اظلم الليل دنا بربر
عبد الرحمن من بربر العدو وخاطبوهم بلفتهم فأجابوهم لما احبوا،
وحين نشب القتال في الصباح قال البربر للعرب : « انالا نحسن الحرب
الا فرسانا ، فاحملوا من بقى منا على الخيل » ، فارجل العرب وحملوا
البربر على خيلهم ، فغدروا بهم وانحرفوا عنهم . وانجلت المعركة
عن ثلاثين ألفا قد صرعوا من الثوار ... هذا ما تردد في
كتب التاريخ وهو ما لانستبعده لأن هذه كانت آخر ثورات
اليمانية في حياة عبد الرحمن لم يتحركوا بعدها ، واقد كانت هناك
بعض الحركات الثورية التالية وان قام بها رجال من اليمن الا أنها
لا تعبر عن غضبة قبيلة أو الرغبة في أخذ ثار وانما كانت تعبر
أولا وقبل كل شيء عن مصالح شخصية وأهواء خاصة .

(١) من كبار القادة في مصر عبد الرحمن وقد ألف أحد أحفاده رسالة
التوايع والزوايع المشهورة في الادب .

أراد عبد الرحمن أن يجعل من انتصاره في هذه المرحلة درساً لجميع من يجرؤ على أن يتحداه في المستقبل فأمر بجمع رؤوس القتلى وجعلها في حفرة عظيمة وراء وادي منبس ظلت مشهورة فترة طويلة ولم ينج سوى عبد الغافر وعدد قليل جداً من الثوار وقد عبر البحر إلى المشرق . وانصرف عبد الرحمن قبل أن يتوجه لقتال الفاطمي إلى أن يستأصل بقايا الفتنة في اشبيلية ، فقطف من رؤوس اليمانية في العام التالي ثلاثين من وجهائهم ولم تعد المدينة بعد ذلك للانتقاض على أمير الأندلس العظيم .

كانت السنوات الثلاث القادمة كلها خيراً وبركة على عبد الرحمن فان فرويلة ملك الجلائقة قد اغتاله شعبه في إحدى الثورات التي قام بها ضده وخلفه أورال (١) Aurelio الذي آثر أن يعيش في سلام مع المسلمين على أن يؤدي اليهم الجزية وبذلك أمن عبد الرحمن عدوان الأسبان وانصرف إلى الفاطمي في سنة ١٥٩ هـ وكان أمره قد ضعف وتخلّى عنه أكثر أتباعه وكرّ الثائر إلى الجبال كعادته فغزا عبد الرحمن قوريه وأثخن في نواحيها وكان الفاطمي لا يزال يسيطر على شسنت بريه ومارده ، فتوجه إليه تمام وأبو عثمان واعتصم شقنا في حصن شيطران وحاصره جيش الإمارة على غير طائل ثم اضطر أن يرجع عن هذه السنة ، فغادر شقنا وكره في الجبال ونزل بقرية من قرى شنت بريه يقال لها قرية العيون وهناك اغتاله اثنان من أصحابه هما أبو معن داود بن هلال، وكنانة بن سعيد الأسود وأتيا برأسه إلى عبد الرحمن في سنة ١٦١ هـ فاستراح خاطره وقدر له أن ينام وقد انزاح عن كاهله كابوس ثقيل .

(١) أو أورالي وهو أورليوس .

الفصل الثامن

×

عبد الرحمن وشارلمان

الفرنجة وقيام الدولة
الكارلوفنجية - شارلمان يعتلى
العرش سنة ٧٦٨ م - فتح اقطانية
وايطاليا وسكسونيا - سليمان
ابن يقظان والى برشلونة يحالف
الفرنجة - عبد الرحمن بن حبيب
الفهرى ينضم الى المؤامرة - طبيعة
الفتوحات العربية في جنوب أوروبا -
الخلاف بين ابن يقظان وابن حبيب -
عبد الرحمن يفتك بابن حبيب -
شارلمان يجتاز الى اسبانيا سنة
٧٧٨ م - ١٦١ هـ ويفتح بنبلونة -
الحسين بن يحيى الأنصارى يناوىء
شارلمان - سرقسطة تستعصى على
الفرنجة - السكسون يعودون الى
الثورة - شارلمان يشحب من
اسبانيا - ماساة رونسيسفال -
اغنية رولان - عبد الرحمن يتوجه
شمالا - الاستيلاء على سرقسطة .

((ادعوك يا ربى يا من
تستند الى صدر العذراء انه
قبل أن أضع قدمى فى شعب
سيزر تنتزع روحى من بين
أضلعى وأوسع معهم فى
جوارهم حيث يسكنون ويرقد
جسدى تحت التراب مع
أجسادهم)) .

شارلان

×—————×

بينما عبد الرحمن لا يزال يتابع نضاله ضد أعدائه الذين
تكالبوا عليه وضد أصدقائه الذين غدروا به كان زمام الأمور
فى الأرض الكبيرة (أوروبا) قد صار قسمة بين الروم والفرنجة
(Franks) (١) وكان الروم فى ذلك الحين قد تداعت قوتهم
وتفوقهم لما جرى فى بلادهم من انقسام دينى خطير (٢) وكان الفرنج
هم الذين آلت اليهم زعامة أمم الغرب والنصارى فى أقطارهم

(١) معنى كلمة فرانك فى اللغات الأوروبية « حر » والفرنجة قبيلة من قبائل
الجرمان استقرت فى بلجيكا وفرنسا وأجزاء من ألمانيا وخلعوا اسمهم على
فرنسا France ولأهمية الفرنجة أصبح العرب يطلقون على الأوروبيين بصفة
عامة الفرنجة أو الفرنج أو الأفرنج ومن تطبع بطابعهم تفرنج .

(٢) النزاع بين الإيقونيين واللايقونيين .

كافة ، وكان من حظ عبد الرحمن أن يواجه الفرنج ويكسر شوكتهم وعدوانهم .. ونحن بصدد هذا يجب أن نكتب مقدمة .

كانت الدولة الأولى للفرنج وهي المعروفة بالميروفنجية (١) (Merovingian) قد تهاوت الى مدارج الضعف والانحلال في زمان محمد وهرقل (٢) وانقسمت المملكة الواحدة الى ممالك ثلاث وهي أوستراسيا (Austrasia) ونويستريا (Neustria) وبرغنديا (Burgundy) وصارت السلطة في كل مملكة من هذه الممالك الى أمناء البلاط وخرج هؤلاء الأمناء عن مهمتهم التي كانت موكولة اليهم وهي خدمة الملوك وأضحت بأيديهم السيطرة على ساداتهم في أحوالهم وعوائدهم ، أما الملوك فقد عرفوا في هذه المرحلة بملوك الشرف أو الملوك الكسالى .

وفي خلال القرن السابع الميلادي آلت أمور مملكة أوستراسيا الى بيت أرنولف (Arnulf) أسقف متس (Metz) ومن سلالته تشارل كارل (Karl) الذي يعرفه الانجليز والفرنسيون بشارل ، وهو قارلة الذي واجهه العرب في معركة بلاط الشهداء سنة ١١٤ هـ (٧٣٢) وتمكن قارلة قبل أن يواتيه الأجل سنة ١٢٣ هـ (٧٤١ م) من أن يكون له السيطرة على فرنسا وشطر واسع من ألمانيا . واستطاع بيبين وهو الابن الأصغر لقارلة أن يدفع عن البابا عدوان اللنبرد (Langobardi) وكانوا يعاكسونه في بلاده - إيطاليا - كما انه هو الذي افتتح ثغر أربونة قصبة العرب في غالة . وقد كافأه البابا بأن خلع عليه تاج الفرنجة سنة ٧٥٤ م ، وتم قص شعر آخر الملوك الميروفنجيين وبدأت الدولة

(١) نسبة الى ميروفيج جدكلوفس (Clovis) مؤسس الدولة وهو قلوذية عند العرب .

(٢) أي في أوائل القرن السابع الميلادي .

الثانية لهم وهى الكارولوفنجية (Carlovingian) أو الكارولنجية (Carolingian) (١) .

وحيث توفى بيبيى سنة ١٥١ هـ (٧٦٨ م) انقسمت المملكة بين ولديه كارل (Karl) وكارلومان (Karloman) ولكن الاخ الأكبر وهو كارل تمكن من اعادة الوحدة الى البلاد بعد موت أخيه سنة ٧٧١ م وانصرف قارلة هذا الى الفتح والغزو فتمكن فى عشر سنوات من فتح أقطانية فقضى بذلك على بيت أوديس ثم توجه الى ايطاليا وكان اللبرد لا يزالون على عدايتهم مع البابا فأزال ملكهم .

وتوجه قارلة بعد ذلك فى أهم حملاته وكانت الى السكسون (Sexons - Sachsen) فى أدغال ألمانيا ، وكانوا لا يزالون على وثنيتهم يعبدون الحجارة والأصنام وكان قتاله معهم أشد قتال مر به خلال حكمه الطويل الذى استمر خمسين عاما ، اذ كان يقودهم زعيم صلب شديد المراس هو فيدوكند (Widokind) (٢) وكان السكسون حين تبدى لهم طلائع الهزيمة يسارعون الى التعميد والتنصير ولكنهم حين تذهب عنهم خيل الملك يرجعون الى أصنامهم فيخرجونها من بين الأحراش ويعود النضال وتكرر الرواية .

وفى احدى هذه المرات فى ربيع سنة ٧٧٧ (١٦٠ هـ) وقد فرغ قارلة من قتل السكسون واستراح فترة فى بادربورن (Paderborn) تلك الضاحية الجميلة التى ابتناها منذ قليل فى فستفاليا (Westphalia) اتته رسل من أسبانية واستغرب الحاضرون الأمر فلأول مرة يطالعون وجوها وسحنا غريبة عليهم ، فكيف كان ذلك .

(١) نسبة الى كارل وهو الابن الأكبر لبيبيى والتسمية الأخيرة هى الأشهر .

(٢) أو فيدوكنت (Widokint) أو فيتكنت (Wittekind) أو فيتكنت (Wittekind) وما ورد بالمتن هو الاسم القديم .

برز على مسرح الأحداث في الأندلس في السنين الأخيرة من حياة عبد الرحمن رجال كثيرون قد ننسأهم أو ننسى البعض منهم ولكننا لن ننسى سليمان بن يقظان الأعرابي الكلبى والى برشلونة والحسين بن يحيى الأنصارى والى سرقسطة وعبد الرحمن ابن حبيب الفهرى المعروف بالسقلابى (١) لطوله وشقرفته . وقد تجنب العلامة الهولندى الكبير دوزى (R. Dezy) الصواب عندما أضاف الى جملتهم أبا الأسود محمد بن يوسف الفهرى . . وسنعرف ذلك فى حينه .

لم يكن التحالف بين سليمان بن يقظان وهو رأس الفتنة وبين الفرنج حدثا جديدا فلقد بدأ سنة ١٤٢ هـ (٧٥٩ م) أى منذ خلصت أربونة لبيبين وقاربت حدود ملك الفرنج حدود والى برشلونة ثم قوى التحالف سنة ١٥٧ هـ (٧٧٤ م) ، وكان عبد الرحمن مشغولا اذ ذاك بثورة الفاطمى وبأمر اليمانية من أهل أشبيلية ولكنه أرسل قائده ثعلبة بن عبيد الجزامى الى سليمان فانهزم وأسر . كما ان عبد الرحمن بن حبيب وهو من أهل بيت يوسف الفهرى كان لا يزال يحمل ما طبع عليه الفهريون من عداوة هريرة لأمير الأندلس المحدث . وببالغ دوزى حين يذكر أن السقلابى كان صهرا ليوسف متزوجا باحدى بناته ولم نجد هذا الخبر فى المصادر القديمة التى تيسرت لنا أما الحسين بن يحيى

(١) أو الصقلى وقد أوردنا الاسم الأول لقدمه لأن الأصل فى الكلمة (Sklave) وهى تعنى العبد باللغة اللاتينية وأطلقت على الشعوب التى سكنت شرق أوروبا قديما تحت سيادة الجرمان وقد تطورت هذه الكلمة فيما بعد الى (Slave) وهى تعنى عبدا أيضا فى اللغات الأوربية الحديثة .

والسقلابى هذا غير عبد الرحمن بن حبيب الفهرى والى إفريقية الذى جاء ذكره فى الفصل الثانى من هذا الكتاب .

فهو من ولد سعد بن عبادة سيد الخزرج وصاحب رسول الله .
ولم يكن دوره في المؤامرة قد ظهر بعد .

كانت المؤامرة قد دبّرت في دقة وعناية فكان علي سليمان بوصفه واليا على برشلونة أن يؤمن طريق الجيش الفرنجي الذي يقوده الملك بنفسه في زحفه الى اسبانيا . . ويساعده بأصحابه اليمانية المغاضبين لعبد الرحمن كما كان علي ابن حبيب أن يأتي من افريقية بعساكر من البربر الذين لم يكونوا على مودة مع الأمير بسبب فتنة الفاطمي ، وأن يرسوا ابن حبيب بجنوده بساحل تدمير - مرسية - وبذلك تشتت جهود عبد الرحمن ، وينتهي حكمه الذي قارب خمسا وعشرين عاما وقبل أن نتابع سرد الأحداث علينا أن نفسر طبيعة الصراع بين العرب والفرنج في تلك الحقبة البعيدة من التاريخ .

اذ كان العرب حين تجاوزوا البرتات منذ سنين بعيدة مضت فانهم لم يريدوا بذلك الفتح المنظم الذي يقوم على استعداد حربي منظم وانما ارادوا بهم خلفاء القوط في اسبانيا ان يخلفوهم أيضا في سبتمانيا . (Septemania) (١) هذا من ناحية ومن ناحية أخرى كان على العرب ان يتعقبوا فلول القوط الهاربة في تلك البقاع قبل أن يستقر لها الأمر وتكون شوكة أو عصبية في ظهر العرب . كما ان المسلمين حين توجهوا شمالا انما كانوا يريدون بذلك تقوية العصب وتجديد القوة وتوجيه الصراع . . وكان كل ذلك حيوية ضرورية للأجيال المتتالية بعد فترة تطول أو تقصر من الدعة والركون الى الراحة وانبساط الحياة . أو هي الرغبة في الغزو والمغنم لأن العرب لم يستطيعوا أن يوجهوا ذلك الصراع الى أهل البلاد ، فقد عاهدوهم وعاقدوهم على الجزية .

(١) أي أرض المدن السبعة أهمها اربونة وهي قاعدة الاقليم وكانت سبتمانيا تتبع القوط قبل فتح العرب للأندلس .

أو الصدقة .. فلم يجدوا الا ان ينسابوا شمالا .. ولكن في حرص وحذر شديدين .. ثم عودة سريعة بخسائر قليلة ومغنم كبير ... وهذا ما حدث بالضبط طيلة اقامة العرب بجنوب غالة حتى القرن العاشر .

وعلى هذا فإن فتوحات العرب في غالة لم تكن فتوحات بالمعنى المعروف .. وانما كانت أشبه بالمغازي أو الغزوات التي عرفها الأوروبيون برزية (Razzia) وهي حروب صغيرة لا تغنى ولا تسمن من جوع .. وكانت معركة بلاط الشهداء هي احدى تلك الرزايا التي كالتها العرب للفرنجة . ولم تكن نضالا حقيقيا بين الهلال والصليب .. فقد حسبها العرب احدى مغازيهم التي اعتادوها منذ زمان بعيد .. لكنهم لم ينهزموا كما يزعم بعض المؤرخين في الشرق والغرب .. لهذا فمن الخطب والخطأ ان يشتهر قارلة (الأول) في التاريخ بالمطربة (Martellus) ذلك لأن المطربة قد تكسرت مرات ومرات حين تابع العرب غزواتهم في غالة ... وكان قمينا أن تستمر تلك الغزوات امدا بعيدا .. لولا ما حدث من هياج العصبيات في بلاد الاندلس كما بينا .. اذن فالعرب لم يكونوا يهتموا بجبهة الشمال قدر اهتمامهم بأحوالهم وعوائلهم في جزيرتهم وكان قارلة على العكس .

كان قارلة الجديد هو أعظم ملوك أوروبا في الزمن الوسيط .. وقد عرفه معاصروه بكارل أو كارولوس .. على حين عرف فيما بعد بشارلمان (Charlemagne) أي شارل الأكبر .. وكان هو الذي آلت اليه مهمة الدب عن الصليب بين معاصريه .. بينما ملوك الروم قد رضخوا للجزية يدفعونها عن طيب خاطر لخلفاء بني العباس في بغداد .. وكان الصليب يتراجع في المشرق والمغرب أمام زحف الهلال المؤزر .. ولذا صار على قارلة أن يظهر أمام قومه الذين أسلموه قيادهم على أنه بطل النصرانية في أيام

محنتها .. وها هو ذا قد انتهى من أمر الكفار في ألمانيا .. وكان عليه أن ينتهى من أمر الكفار في اسبانيا .

ولكن كيف يأتى قارلة الى بلاد الجزيرة وهو لم يدعه أحد من أهلها .. فان الجلالة عاهدوا عبد الرحمن وصاروا يؤدون اليه الجزية . كما ان النصارى الخاضعين لحكم المسلمين كانوا يعيشون حياة رخية لم يعتادوها أيام القوط .. وقد سمح لهم العرب بعقد مجامعهم ومؤتمراتهم الدينية .. على أن يدفعوا الجزية كأهل ذمة مقابل اعفائهم من الخدمة في الجيش .. كذلك لم يدع الفرنجة خليفة بنى العباس وعدو عبد الرحمن الأول ليرده الى الطاعة .. فان أبا جعفر المنصور قد تلقى درسا ضمخته دماء العلاء بن مغيث وصحبه اليمانية .. وهو حين تراسل مع ملك الفرنجة السابق سنة ١٤٨ هـ (٧٦٥ م) لم يكن ذلك تمهيدا لحلف أو توثيقا لعرى وانما كان كل ما فى الأمر رجلا عظيما يبادل عظيما آخر كل احترام وتقدير .. ولم يكن يقصد التحالف .. وفرق بين التآلف والتحالف اذن فان أحدا لم يدع قارلة سوى نفر من مراق المسلمين الذى خلعوا نقاب الحياء .. وباعوا أوطانهم بيع الرقيق فى أسواق الفرنجة (١) .

كان عبد الرحمن قد انتهى لتوه من فتنة الدعى الفاطمى حين وصله الخبر برسو عبد الرحمن بين حبيب الفهرى على ساحل تدمير .. وانه أعاد ما سبق وفعله العلاء فقد رفع اللواء الأسود وأعلن الطاعة لبنى العباس ودخوله فى طاعة المهدي خليفة أبى جعفر (٢) . ثم أرسل على الفور الى حليفه سليمان بن يقظان

(١) من الذين يصورون الأمر وكأنه مؤامرة دولية ضخمة اشترك فيها العباسيون والفرنجة بكسر Buckeler فى كتابه « هرون الرشيد وشارل العظيم » .

(٢) محمد المهدي بن أبى جعفر المنصورى ووالد هارون الرشيد ١٥٨ هـ / ١٦٩ هـ .

يطلب منه تنفيذ ما جرى عليه الاتفاق .. وكان قارلة لم يعبر بجيشه بعد الى اسبانيا .. فتردد سليمان في اجابته .. وظن أن تبكير ابن حبيب في الحضور ما هو الا مؤامرة مدبرة فأجابه « انى لا أدع عونك » .. واغتاز الرجل وعاد النزاع القديم بين الفهرية والكلبية .. وزحف بجموعه الى حليفه السابق والتقى في أحواز برشلونة .. فلحقت الهزيمة بالسقلابي .. وكر واجعا الى تدمير وقد ضعف جانبه .

انتهر عبد الرحمن الداخل الفرصة وسار الى غريمه وسميه ابن حبيب وقبل أن يهاجمه أحرق سفنه حتى يمنعه من الهرب .. فلاذ ابن حبيب بجبال بلنسية .. واستعمل عبد الرحمن الحيلة وجعل ألف دينار لمن يأتيه برأس ابن حبيب .. فأغتاله وجل من البربر وحمل رأسه اليه .. وعاد شرق الأندلس الى طاعة بنى أمية .. وختم الفصل الأول من فصول المؤامرة .

تقول الأسطورة التى ترجع الى القرن الثانى عشر بعد المسيح ان قارلة .. وقد استولى على ما لا حصر له من المدن والأمم والبلدان .. اشتدت الرغبة به الى الخلود الى الراحة .. وبينما كان ذات ليلة قابعا يرقب السسما رأى الطريق يبدأ فوق بلاد فريزيا وهى اقصى أملاكه شمالا ، واتجه عبر السموات نحو الجنوب ، ولم يزل ينحنى فوق الأراضى الشاسعة حتى استقر طرفه على جليقية التى تقع خارج الامبراطورية ، ودهش قارلة وعجب .. وفى رؤيا أخرى ناداه الرسول القديس جيمس ، وقال له أن جثمانه الذى لا يعرفه المسلمون ولا المسيحيون يرقد فى تلك الأراضى النائية ، وأمسره بأن ينهض فيستخلص جليقية من المسلمين .. ولم يلتفت قارلة الى الرؤيا أول الأمر ، وتكرر ظهورها ثلاث مرات وفى الرابعة لى النداء (١) .

(١) راجع شارلمان ، تأليف ديفر وترجمة الدكتور السيد الباز العربى .

كان ذلك في ربيع سنة ٧٧٨ م (١٦١ هـ) حين سار شارلمان عقب عيد القيامة من كاسيتى قاصدا الجنوب ، وانضوت تحت لوائه جموع عديدة من البافاريين واللنبرد والبرغنديين والأوستراسيين والبروفنسيين والسبتمانيين . وكانوا يسرون جماعة في صفوف متوازية ولكنهم لما وصلوا جبال البرتات تفرقوا الى قسمين ، فواحد اتخذ طريق الشرق بقيادة الدوق برنهارد . . والتزم في سيره ساحل البحر الى جرندة ، على حين اتخذ الآخر طريق الغرب وقاده الملك بنفسه ، وسار في الطريق الرومانى القديم فوق آكام جان دى لابور الشاهقة التى تشرف على مفاوز ونسفال الوعرة على ان تعين سرقسطة نقطة للاجتماع واخترق شارلمان بلاد البشكنس واستولى على عاصمتها بنبلونة ، وما كاد يتحد الجيش من جديد ويقترب من سرقسطة حتى انضم اليه سليمان بن يقظان ، بعد ان قدم رهائنه ، وهم جماعة من الأعيان والأكابر من بينهم ثعلبة بن عبيد قائد عبد الرحمن الذى سبق أن وقع في أسر سليمان ، وكان قارلة ينتظر أن تفتح سرقسطة له أبوابها ، ولكن شيئا من آماله لم يتحقق .

لم تتح الفرصة للحسين بن يحيى لى يلعب دوره الا قبيل قدوم قارلة مباشرة ، ولكن الحسين استعان بعصبيته من أهل المدينة والحجاز ، وساعد سليمان في نضاله ضد عبد الرحمن . ولكن حين اقتربت جموع الفرنج من سرقسطة لم يلبث ان انقلب على حليفه السابق ، ولربما دفعته بقايا مروءة لا تزال تسرى في دمائه ورثها عن جده العظيم سعد بن عبادة رئيس الأنصار ، ولربما ايضا دفعته ظروف أخرى اذ خاف أن يخرج على عبد الرحمن فيدخل في نير الفرنج وطفغيانهم ، ثم أن قد قنع بالموقف الذى هو فيه واستقلاله عن كل من عبد الرحمن وشارلمان .

انضمت سرقسطة الى معسكر عبد الرحمن فترة حصار قارلة

لها قائدها بجنوده واستطاعت أن تصبر على الحصار أسابيع عديدة دون أن تطيع سنابك الفرنج ، بل إن دفعة من أهالي المدينة الشجعان لم تلبث أن خرجت منها وردت بعض فيالق الجيش المحاصر عن أرباض المدينة . ولكن شارلمان لم يرفع الحصار ، وبينما هو كذلك إذ آتته الأخبار من بلاده بأن السكسون قد انتقضوا وخلعوا الطاعة ، بعد عودة زعيمهم الكبير فيدوكند من بلاد الشمال ، وفتك الثوار بالنصارى ورجال الدين ، كما أحرقوا الكنائس وذبحوا جنود الملك . وتفاقم الخطر ولم يجد شارلمان إلا أن يكر راجعا إلى بلاده في يوليو سنة ٧٧٨ م (شوال ١٦١ هـ) . لكنه لم ينس أن يأخذ معه سليمان بعد أن ظن أنه خدعه ، كما خرب في طريقه بنبلونة وغيرها من المدائن ، وكانت من بلاد النصارى التي تخضع لحماية المسلمين .

وعاد شارلمان من نفس الطريق الذي جاء منه ، وهو الممر الذي عرف فيما تلا ذلك من عصور بمررونسفال والذي عرفه العرب بباب الشزرى ورسمه الشريف الإدريسي بباب شزروا (١) ، وكان الملك قد أوشك أن يجتاز الممر ويترك تلك الصخور العاصية إلى سهول أقطانية الفسيحة ، وإذا بجلبة تعلو وكتيبة من المسلمين يقودها مطروح وعيشون ابنا سليمان بن يقظان تباغت مؤخرة الجيش التي يقودها هرودلاند Hruodland وإلى برطانية (٢) Britania ، وهما لم يكونا وحدهما فان البشكنس وكانوا حائقين على الفرنج تخريبهم عاصمتهم بنبلونة اتحدوا مع المسلمين ، وفتكوا بمؤخرة جيش الفرنج في هذا الشعب الضيق وخر جماعة من كبار القواد وأصدقاء الملك بينهم انسلم Anselm واجيهارد Eggihard وهرودلاند الذي عرف فيما بعد برولان

(١) الاسم اللاتيني القديم للممر هو Portus Sizarae .

(٢) أو بریتون أو بریتانی وهي شبه جزيرة بالغرب من شمال فرنسا ومن هذا الاسم اشتق اسم بلاد الانجليز حين هاجر أهل بریتانی اليها .

Roland أو أورلاندو Orlando وتمكن مطروح وعيشون من استنقاذ أبيهما ، ووضعاً أيديهما على الفنائم التي كانت مع كتينة هرودلاندا ، ثم رجعا الى سرقسطة .

كانت الصدمة شديدة على نفس شارلمان ، لكنه لم يستطع أن يتراجع ليقتص من الجناة ، ويسترد شرفه الذي أهين في شعب رونسفال . وانكفا الأدباء والشعراء في القرون التالية يدبجون القصص وينشدون الشعر في وصف ما جرى في ذلك اليوم . ويطول بنا المقام لو تحدثنا عن أجمل تلك الأساطير وأبرع تلك الأغنيات وهي أغنية رولان Chanson de Roland الشهيرة ، وقد نظمها راهب نورمانى في القرن الحادى عشر من وحي مأساة رونسفال ، لتصبح زادا يدفع حماسة هؤلاء الذين اتخذوا الصليب ، واتجهوا الى المشرق لاغتيال الأراضى المقدسة في الحملات الصليبية المعروفة . وفيما يلى ترجمة لبعض أبيات هذه الملحمة عن النص الانجليزى لدوروثى . ل . سيرز .

— ٢٠٨ —

« رولان يا صديقى : سوف أرجع الى فرنسا

وعندما أكون فى لاءون فى ضياعى الخاصة

سوف يأتى الى كثيرون من الممالك الأجنبية والشعوب الأخرى
ويسألون أين هو ذلك القائد العظيم .

وأخبرهم بأنه يرقد ميتا فى أسبانيا

لقد قدر على أن أقضى حياتى على العرش فى أسنف ..
ولن انقطع يوما عن الحزن والبكاء » .

« رولان يا صديقى : أيها المقاتل الجسور والشاب الطيب
عندما أكون فى أيكس (١) تحت سقف كنيسة .
سوف يأتينى كثيرون ويسألون عما جرى
وحينئذ سوف أخبرهم بالحقيقة المرة :
مات حبيبى الذى أخضع شعوبى كلها
سوف يشق السكسون عصا الطاعة ضدى
والمجريون والبلغار وغيرهم من أعدائى
سوف يقصدونهم من روما وبالرمو وأبوليا
والعصابات الأفريقية ويصرخ البحارة
هنا تتجدد متاعبى وشقائى
أين هى تلك العزيمة لتقود جيوشى بعد ذلك
منذ أن مات ذلك الذى يقودنا جميعا الى النصر واأسفاه
لفرنسا الجميلة كم أنت موحشة .
وكم أنا تعس مكدود وددت لو قضيت أيضا «
وأخذ شارل يمزق لحيته التى وخطها الشيب .
وينتقب شعره بكلتا يديه من جذوره .
وأغمى على مائة ألف فرنسى .

« رولان يا صديقى أسبغ الله عليك من نعيمه
وأودع روحك فى الجنة المباركة

(١) اختصار ايكس شابل Aix-La. Chapelle وهى آخن .

ذلك الذى ذبحك قد ذبح فرنسا أيضا

كم يبلغ حزنى وددت لو مت

تعسا لأهل بيتى الذين يهلكون فى الذب عنى

أدعوك ياربى يا من تستند الى صدر العذراء

انه قبل أن أضع قدمى فى شعب سيزر (١)

تنتزع روحى من بين أضلعي

وأوضع معهم فى جوارهم حيث يسكنون

ويرقد جسدى تحت التراب مع أجسادهم «

ويبكى شارل وينشب أظافره فى لحيته القضية .

وهنا يقول دوق نايمون : « ان شارل فى حزن عميق » (٢) .

وعزم عبد الرحمن على التوجه شمالا فان الحلف غير المكتوب الذى كان بينه وبين الحسين بن يحيى قد انفصم عقده بل ان جماعة سليمان بن يقظان لم تلبث ان تفاهمت مع عبد الرحمن ولكن الظروف منغته من السير الى سرقسطة بسبب بعض الفتن الداخلية فى الجنوب وهى فتن صغيرة لم يجر اعدادها بنظام وكانت أسبابها فى الأغلب واهية أولها فتنة دحية الفسانى (٣) وهو ابن أخت أبى عثمان عبيد الله بن عثمان وكان فى جملة قواد عبد الرحمن الذين وجههم لقتال الفاطمى ولكنه لم يلبث أن انضم اليه ، فلما فشلت ثورة الفاطمى لاذ دحية بالهرب الى بعض حصون البيرة ، فوجه اليه عبد الرحمن شهيد بن عيسى بن شهيد فقتله وكان

(١) Sizer وهو شعب رونسفال الذى قدمنا الحديث عنه .

(٢) ترجمت السيدة دوروى سايرز هذه الأنشودة عن الأصل الفرنسى القديم ونشرتها سلسلة البنجوين Penguin وقدمت لها بالحديث عن جو الملحمة وملاحم العصر الذى يتسم بالأقطاع والفروسية وأخوة السيف مع شرح واف للأنشودة .

(٣) أو وجيه والأصح كما بالمتن .

ذلك في سنة ١٦٢ هـ كما سير في نفس العام بدرا الى ابراهيم ابن شجرة البرنسي بمورور وكان أيضا من رجال عبد الرحمن من لدن دخوله الأندلس ثم لم تعجبه الحال ، خاصة بعد مقتل شقنا فقتله ، وثار بطليطلة القائد السلمي وكان من حاشية عبد الرحمن ثم خالفه في بعض الأمور وغاضبه فسير اليه الأمير حبيب بن عبد الملك فحاصره في طليطلة ثم قتله سنة ١٦٣ هـ . وثار بالجزيرة الخضراء الرماحس بن عبد العزيز الكنانى (١) ، فداهمه عبد الرحمن بنفسه قبل أن يستكمل أهفته ، فعبر البحر الى المشرق .

استراح عبد الرحمن واعتزم الخروج الى الصيد ، فانتهاز نفر من أقاربه وأصدقائه فرصة خلو قرطبة من أميرها ، واجتمعوا على الخلاف ، وهم يحيى (٢) بن يزيد بن هشام المعروف باليزيدى وهو ابن عم عبد الرحمن وعبيد الله بن أبان بن معاوية وهو ابن أخى عبد الرحمن وشاركهما في الأمر أبو عثمان عبيد الله بن عثمان الذى كان قد سخط من سيده ما فعله بابن أخته دحية . وبينما هم قد اجتمعوا ذات مساء يدبرون أمرهم ، اذ تدلى أحد موالى عبيد الله ابن أبان من سور القصر وكان قد سمع كل شيء ، وأقبل الى بدر وكان هو القائم مقام الأمير وأخبره بما جرى ولما علم الأمير أرسل من قبض على المتآمرين قبل أن يبارحوا بيوتهم وقتل ابن عمه وابن أخيه وتبع الباقيين ، ورفض أن يفعل مع أبى عثمان ما فعله أبو جعفر المنصور مع أبى مسلم الخراسانى ، فاعتزل الرجل السياسة وظل في داره حتى مات .

بعد أن انتهى حزن عبد الرحمن لغدر الأقارب والإصدقاء اتجهت نيته الى أن يعبر الى الشام ، ويعيد دولة بنى أمية في بلاد الاسلام ، وأعد السفن اللازمة لذلك بالفعل ، ولكن الرجل لم يلبث

(١) في بعض المصادر الدماحس .

(٢) أو عبد السلام كما في « نفح الطيب » .

أن عدل عن وايه ، وارتضى الأمر الواقع الذى اختاره التاريخ له ،
وها هو قد انتهى من توطيد نفوذه فى الجنوب ، وكان عليه أن
يكسر شوكة الفتنة التى أينعت وترعرعت فى الشمال منذ ما يقرب
من عشر سنوات .

كان سليمان بن يقظان قد أفلت من حبس شارلمان وعاد الى
سرقسطة ، لكن الحسين بن يحيى وهو حليفه القديم أصبح سيد
الموقف ، قدس عليه من قتله بالمسجد يوم جمعة بينما كان يصلى ،
متعللا بخيانتة العظمى للمسلمين . وفر عيشون بن سليمان الى
أربونة وافدا على الفرنج ، فلما علم بمسير عبد الرحمن الى سرقسطة
انضم اليه ، وضاق الحصار على الحسين حتى سلم ولده سعيدا
رهينة ، فارتحل عنه الأمير ، وأتيحت له الفرصة فى عودته لأن يغزو
البشكنس ، فخرّب إقلاع بنبلونة حتى لا تكون رأس جسر للفرنج ،
وفعل مثل هذا بقلهرة وبقيرة (فكيرا) واجتّاح شرطانية
Cerritania (١) وأجبر أميرها الذى كان محالفا للفرنج على الدخول
فى طاعته وأداء الجزية ثم عاد الى عاصمته منصورا .

استطاع عبد الرحمن أن يقص أجنحة كل من الحسين بن يحيى
وشارلمان ، وعند ما عاد الحسين الى القدر بعد أن فر ولده سعيد
أثناء عودة الأمير الى قرطبة اكتفى بأن سير غالب بن تمام بن علقمة
الى الثغر سنة ١٦٥ هـ (٧٨١ م) فأسر جماعة من أصحاب الحسين
منهم ابنه يحيى وسيرهم الى سيده فقتلهم واستمر على حصار
الحصن .

كانت حملة غالب بن تمام مقدمة للحملة الكبرى يقودها الأمير
بنفسه ولكن أعوان الفرنجة فى قرطبة حاولوا تعريضها لحين معاودة
شارلمان الغزاة فى الأندلس وقام عيشون بن سليمان بمحاولة يائسة

(١) هذا هو الاسم اللاتينى اما الاسم الاسبانى فهو Cerdana

لاغتيال عبد الرحمن بسكين كانت معه لكن أمره انكشف وقتل ثم صلب على النهر في قرطبة . وبدأ سير الحملة وحاصرت سرقسطة حصارا عنيفا ، فنصب عبد الرحمن عليها ستة وثلاثين منجنيقا حتى ملكها عنوة ، ووقع الحسين في الأسر هو وجماعة من أعوانه فقتلهم عبد الرحمن أقبح قتلة وفر ابنه سعيد ، وأصبح ثعلبة ابن عبيد واليا على المدينة بعد افتدائه من أسر الفرنج . . وعادت سرقسطة الى طاعة عبد الرحمن وانتهت مطامع الفرنج في بلاد الأندلس . . فقد وجدوها لقمة صعبة عسيرة المذاق !!

الفصل التاسع

×————×

آخر الطريق

مؤامرت الأقرباء — عودة أبي الأسود
الى الثورة ومقتله سنة ١٦٩ هـ — مأساة
بدر — اتمام البناء — الجلالة يرسلون
الجزية الى عبد الرحمن — شارلمان يطلب
المصاهرة — موت عبد الرحمن سنة
١٧٢ هـ .

« انما تعبنا أولا لنستريح آخرًا ،
وما أرانا الا في أشد مما كنا » .

بدر

×

كان عبد الرحمن قد اعتاد في سالف أيامه أن يواجه غدر الأعداء ثم غدر الأصدقاء وكان عليه الآن أن يواجه غدر أقربائه وأهل بيته ، وقد بدأ ذلك منذ ثلاث سنوات حين تأمر عليه ابن عمه وابن أخيه العزيز الذي فقدته إبان الفتنة الكبرى في بلاد المشرق ، ولم يكن عبد الرحمن سهلاً في حسابه فقد أورد المتأمرين موارد الموت . وها هو الآن قد انتهى من أمر الخوارج في الشمال القاصي ، وعاد إلى قرطبة منصوراً ، ولكنه ما كاد يستقر بالرصافة حتى أتاه من أعلمه بخلاف واحد من أهل بيته المقربين إليه وكان عزيزاً عليه ، وهو المغيرة ابن أخيه الوليد ، ذلك الأخ الذي بقي له منذ سنين الجهاد . وزادت آلام عبد الرحمن عندما علم بموالة الثائر الجديد وتواطئه مع واحد من أبناء أعدائه وذريتهم ، وهو هذيل بن الصميل ابن حاتم ، وكلنا يعرف كيف كان عبد الرحمن مع أبيه . ولشد ما كان حزن أميرنا وهو يأمر بابن أخيه إلى القتل جزاء اجترامه وغدوره النعمة التي أنعمها الله عليه ، وانكفاً والحزن يملأ قلبه يأمر بأن يسير أخوه الباقي له على هذه الدنيا إلى العدو مع أهله وولده ، ولكنه لم ينس أن يجهزه بعشرة آلاف دينار ، حتى يجعله عزيزاً في ديار الغربية ، ولا يجعل أمية تسأل وهي على الدوام تعطى .

ذكرنا في مبحث فائت أن عبد الرحمن لما أمر بقتل أبي زيد عبد الرحمن بن يوسف الفهرى لما جرى من انتقاض أبيه أشفق على أخيه أبي الأسود محمد لصغر سنه فتركه في الحبس (١) ، فاستمر مدة يسيرة ثم كسر السجن وقصد الى طليطلة وهي معقل أبيه فتحصن بها ، وسار اليه تمام فحاصرها حتى سلمت وجرى بأبي الأسود ثانية الى الحبس ، وما هو الآن قد مرت عليه سنون تزيد على الربع قرن ، وقد بدا عليه أنه صار شيخا كبيرا لا يتوقع منه شر ، ولكنه لم يكن كذلك .

كان أبو الأسود على قدر كبير من الدهاء والمكر وسعة الحيلة ، فتعاضى في حبسه وصار لا تطرف له عين ، وبقي كذلك دهرا طويلا ، حتى صبح ذلك عند عبد الرحمن . وكان في أقصى السجن سرداب يفضى الى النهر ، ويخرج اليه المسجونون فيقضون حوائجهم ، وكان الموكلون يهملون أمر صاحبنا لعميه ، وكان هو يتمادى في الضحك عليهم ، فكان اذا رجع من النهر يقول « من يدل الأعمى على موضعه ؟ !! » في احدى هذه المرات لقي مولى له على شاطئ النهر ، واتفق معه على أن يأتيه بخيل يحمله عليها . فخرج يوما ومولاه ينتظره فعبر النهر وبضربة أو اثنتين من ساعديه اللذين لم ينهكما الزمن وصل الى الشاطئ الآخر ، وركب الفرس ولحق بطليطلة ، حيث لا يزال له بعض الصنائع هناك .

لم يهنا لعبد الرحمن بال حتى خرج من قرطبة في أثر غريمه ، فالتقيا على الوادى الأحمر بقسطلونة ، واستمر القتال بينهما ، حتى انهزم أبو الأسود ، وسقط على أرض المعركة أربعة آلاف من أصحابه ، سوى من تردى في النهر أو هلك في المهاوى . وأتبعه عبد الرحمن بقتل من لحق به حتى جاوز القصر الأبيض واقترب من بلاد الجلالقة ، فتركه عبد الرحمن وعاد الى قرطبة ، ولحق محمد

(١) الفصل السادس .

بقورية ، ثم غاود عبد الرحمن مطارده سنة ١٦٩ هـ ، ففر الثائر أمامه ، وانحاش وحده في غياض وقد تفرق عنه أهله وأصحابه حتى مات منفردا محسورا . وقام بأمره بعده أخوه أبو القاسم ، بيد أنه لم تكن له طاقة بعبد الرحمن ، فاستسلم له وقيل قدم بغير أمان فقتله .

وكانت تلك آخر حروب عبد الرحمن ، وها هو الآن يقترب بخطوات سريعة من الستين وقد قدر له قبل أن تمضي السنتان الأخيرتان من عمره أن تمر به بعض المتاعب ، فقد خرج عليه بنو نفزة وهم أخواله ولكن المؤامرة تكشفت قبل أن تستفحل ، فأوقع بهم وقتل فيهم وشردهم .. كما قدر له أخيرا أن يختصم مع واحد من أصحابه هو أقربهم الى نفسه وأنفذهم الى قواده بدر !! ..

من كان يظن أن يخونه مولاة الأمين .. كلا !! ان هذا لم يحدث على الإطلاق وانما الرجل قد تعب من الحرب والكفاح بعد أن استمر سنين عدة يراوده الأمل في أن يستكين الى الراحة ويثوب الى الدعة أو كما قال « انما تعبنا أولا لنستريح آخر ، وما أرانا الا في أشد مما كنا !! » .

وكان بدر قد لبس لباس الكفاح حتى بانت خروقه ، ووهنت عظام الفارس النبيل بعد أن غادره الشباب منذ بعيد ، فاستمع الى أهل الخلاف دون أن يكون منهم وسكت بعد أن سمع ، وحاول أن يعدل من سياسة الأمير حتى يعم السلام أنحاء الجزيرة ، ولكن عبد الرحمن كان له رأى آخر ، ورأى أن ما قاله بدر قد يكون له أثر في المستقبل ، فعفا عنه لكن جافاه وفارقه ، وقذف به من أعلى المنازل ، وأقصاه الى الثغر ، لا ليتحطم وانما ليستقر في منزلة أعلى من القاع ، اشفاقا عليه من الرضوض والأوجاع ، وهو بعد سمر حياته ورفيق صباه .. وعاش بدر ما تبقى له من عمره يتذكر الايام الخوالي ويتحسر عليها ويتقوت منها .

وانصرف عبد الرحمن في أيامه الأخيرة ، وبعد أن سكنت الفتنة وانتهى النضال يشيد تلك الحضارة التي استمرت من بعده قرونا عديدة وكان قد بدأ قبل عشرين عاما في بناء السور الدائر حول قرطبة ، وقد اكتمل بناؤه فيما تلا ذلك من أعوام كما شاد الرصافة مدينته الجميلة ، تشبها برصافة جده هشام ، هنالك في الجانب الآخر البعيد من بحر الروم . وانكفا الآن على اتمام « الرتوش » الأخيرة من قصره المنيف الذي ابتناه بها . كما شرع في بناء المسجد الجامع في حاضرة الامارة وجعله على نسق جامع أجداده في دمشق الفيحاء ، ولكنه لم يقدر له أن يعيش حتى يكتمل بناؤه ، فقد كان ذلك من نصيب ولده وخليفته هشام الرضى .

كانت بلاد الأندلس قد اذعنت قاصيها ودانيها لرايات بنى أمية ولأمير بنى أمية العظيم ، وكان النصارى في بلاد الجلالة قد اعترفوا له بالسيادة والتفوق معا منذ عهد فرويلة بن اذفونش وفي عهود خلفائه أورال وشيلون Silon واذفونش ثم مورقاط Mauregaros وقد رضخ هذا الأخير الى الجزية يؤديها الى عبد الرحمن مائة عذراء من زبدة بنات قومه حسنا وبهاء وفتنة ، فملأ قصر الامارة حياة وبهجة وبشاشة ، وأعدن الى الأمير الشيخ بعضا مما فاته من دماء الشباب التي بدأت تتسرب عنه منذ سنين .

وها هو ذا قارلة العظيم - شارلمان - طاغية الفرنج وأعظم ملوكهم يعمل لعبد الرحمن الحساب الأوفى ، فحصد الجبهات الواقعة على الحدود مع المسلمين وملأها بالمقاتلة كما جعل من لقطانية وسبتمانيا مملكة واحدة ، وجعل عليها واحدا من أبنائه هو لودفيج Ludwig (١) الذي ولد أيام الكارثة الكبرى عند بوابة الشزرى . ولكن ذلك لم ينفعه وها هو الآن يرضخ لعبد الرحمن الذي أذل كبريائه ، ويخاطبه - كما تقول رواية

(١) أو لويس Louis المعروف في التاريخ بالتقى وهو خليفة شارلمان .

ابن حيان مؤرخ الأندلس القديم - يدعوهُ الى السلم والمصاهرة (١) ،
فأجابه عبد الرحمن الى السلم واعتذر باعتسلاال صحته عن
المصاهرة .

وكان عبد الرحمن صادقا كل الصدق في اعتذاره ، فانه قد
عاش حياته للكفاح فلما انتهى انتهت ، وهو الآن في سريره بقصر
الإمارة ، وقد أحاط به أولاده وأهل بيته وكبار رجال دولته . وقد
شمل الجميع سجاج من الألم والقلق والشجون ، ينظرون الى
الأمير ولا يدرون ما يقولون ولا ما يفعلون . .

ولربما كان الأمير يستطيع أن يخرج من آخر معارك حياته
منتصرا ولكن . . هيهات .

وفي يوم الثلاثاء لست بقين من ربيع الآخر سنة ١٧٢ هـ (٢)
(٢ أكتوبر سنة ٧٨٨ م) غادرت روح الأمير عبد الرحمن بن معاوية
ابن هشام هذا الجسد القوي الى مكان بعيد بعيد ، لا يعرفه انسان . .
وصلى عليه ولده عبد الله (٣) وأخذ البيعة لهشام ، وكان اذ ذاك
بماردة ، وكتب اليه يموت أبيه أمير الأندلس العظيم وبالإمارة ،
فلحق هشام بقرطبة ولم يقدر له أن يحضر دفن أبيه اذ كان قد
توارى في التراب .

(١) هريرود لم تكن قد تزوجت بعد .

(٢) وقبل لعشر خلون من جمادى الأولى سنة ١٧٢ ، كما قيل توفد
سنة ١٧١ والأصح كما بالمتن .

(٣) المعروف بالبلنسى .

الفصل العاشر

X-----X

تقرير وتقدير

ورثة عبد الرحمن - ظروف عصره -
تقواه - جهاده - تسامحه مع النصارى -
حبه لأقاربه - أحسانه إلى أصدقائه -
وصف أبي جعفر المنصور له - شجاعته
وقيادته - طبيعة الحاكم - عدله -
حزمه - معاملته للأعداء - عبد الرحمن
الشاعر - تنظيمه للدولة - الجيش
والأسطول - الدور الحكومية - سور
قرطبة - الرصافة - القصر - الجامع -
الدولة الأموية بعد عبد الرحمن •

« صقـر قريش !!
عبد الرحمن بن معاوية الذي
عبر البحر وقطع القفر ..
ووطد الخلافة بالأندلس ،
وافتح الثغور وقتل المارقين
وأذل الجابرة الثائرين » .

أبو جعفر المنصور

×—————×

وبعد .. فقد كانت تلك هي سيرة عبد الرحمن بن معاوية
ابن هشام .. صقر قريش والداخل من بني أمية أرض الأندلس
والأول في أمرائها العظام ، أحد كبار رجالها وهم عبد الرحمن
ابن معاوية وعبد الرحمن الناصر والمنصور بن أبي عامر .

كان مديد القامة نحيف القوام أعور أخشم له صغيرتان أصهب
خفيف العارضين له خال في وجهه .

أبو زيد وأبو المطرف عبد الرحمن .. كان أمويا ، ورث كل
ما ينبىء عنه ذلك الأصل ، والفرع لا يغيب عن الأصل كثيرا ..
وبنو أمية منذ أن غاضب جدهم عمه هاشما وبدأت العداوة بين
البيتين القرشيين (١) كانت لهم الرئاسة السياسية في بني كنانة ،

(١) صور المقرئى هذه العداوة في بيتين :

عبد شمس أضرمت لبنيها	شم حربا يشيب منها الوليد
فابن حرب للمصطفى وابن هند	لعيسى وللحسين يزيد

بينما كانت الرئاسة الروحية لبنى هاشم ، فكان بيتى عبد مناف
قد تسنما مدارج السيادة والتفوق فى قبائل العرب ..

ولعل أظهر ما تدل عليه تلك الرئاسة السياسية ما قد عهدنا عن
أبى سفيان بن حرب من عداوة مريرة لمحمد رسول الله ، وكيف انه
قاد الحرب فى أحد وانتصر ، ظل ثابتا على ما قد ارتآه واعتقده ،
حتى شارفت سيوف الله أم القرى ، هنالك أرغمته أحوال السياسة
على أن يساير مد الاسلام وقد تكسرت أمامه جيوش الكفران ،
كما أن ولده القدير وقف بازاء خليفة رسول الله وابن عمه موقف
الطود لا يلين أمام عدوان الزمان الى أن تحقق له ما قد سعى اليه
من نصر مؤزر وغاية سعيدة .

ولو نحن تتبعنا فروع الشجرة لراعنا مروان وهو شيخ
بنى أمية ومجدد دولتهم ، وعبد الملك قاهر الزبيريين وأهل الحجاز
والوليد فاتح أسبانيا وتخوم الصين ، وأخيرا مروان بن محمد الذى
صمد أمام الأعلام السود لا يتحرك .. ولكن قضاء الله لم يكن
بجانبه .

وكان عبد الرحمن قاسيا ، ولكن ظروفه كانت ترغمه بذلك ،
فهو قد درج مدارج الطفولة فى عصر هشام ، فعاش حياة تحيط بها
أسباب الرفاهة والدعة فى بيوت السادة الفطارقة الأماجد ، وكان
سيدا يأمر فيطاع وهو بعد لم يبلغ مبلغ الرجال ولكن الأحداث
والخطوب تداعت على أسرته منذ أن قبض جده هشام ، واضطرب
أمر بنى أمية الى أن أنزلهم الله من مكانهم العالى ، وصاروا فى جملة
الرعايا ، تتعقبهم خيل بنى العباس طالبة ثأر الحسين وزيد ويحى
ابن زيد .. وإبراهيم الامام ، وخاضت هذه الخيل فى دماء
بنى أمية .. ولكن واحدا منهم حمل حياته على ساعديه ، ولاذ بعد
أن قطع الفيافي والفلوات بمكان ناء ، بعيد فى مغرب الأرض ، حتى
لا تناله أيدي العباسيين .

لا عجب إذن أن يكون عبد الرحمن بهذه القسوة التي عدها كتاب الفرنج وبخاصة الفرنسيين في مثالبه ومثالب أسرته ، فهو قد راض القفار وحيدا بلا عون ولا سناد اللهم الا من بعض أهله ومواليه ، فجدد لأجداده دولة بالأتدلس ، وأراد أن يحفظها من الاغتتيال كما صار الحال في بلاد المشرق . وهو لم يكن كيزيد حين غدر بالحسين ابن بنت رسول الله وأهل بيته ، كما لم يكن كالحجاج ابن يوسف يقطع الرءوس بعد أن أينعت وحن قطافها . ولم يكن كبنى العباس الذين قتلوا زهرة بنى برمك وهم خدامهم منذ أن رفعت الرايات السود . ولم يكن عبد الرحمن كشارلمان الذي ذبح أربعة آلاف وخمسمائة من السكسون ذبح النعاج في يوم واحد وهم عزل من السلاح ، لأنهم رفضوا أن يخرجوا عن عبادة الأصنام إلى دين السيد المسيح (١) .

وعلى ذلك فإن عبد الرحمن لم يكن كما وصفه دوزي كبير مؤرخي الفرنج حين يقول :

« كان هم عبد الرحمن الدائم أن يتدبر أحسن الوسائل في اذلال العرب والبربر إلى الطاعة ، وأن يلزمهم بالتعود على النظام والسلام ، ولأجل هذه الغاية لجأ إلى كل السبل التي لجأ إليها ملوك القرن الخامس عشر بعد ذلك في صراعهم مع الاقطاع . ولكنه كان مصيرا محزنا ذلك الذي دفعت إليه يد القدر اسبانيا ، وكانت مهمة محزنة تلك التي أوكلت إلى خلفاء عبد الرحمن ، لأن الطريق الذي رسم لهم مؤسس الأسرة أدى إلى طغيان السيف . بيد أنه من الحق أن نقول إن ملكا لا يستطيع أن يحكم بغير هذه الوسيلة ، وإن كان العنف والطغيان ثمة في ناحية ، ففي الناحية الأخرى كان يوجد الاضطراب والفوضى » .

(١) راجع مقال المؤلف بمجلة الرسالة ١٢ نوفمبر ١٩٦٤ بعنوان « صقر قریش بین الادب والتاریخ » أما السكسون فقد غدر بهم شارلمان في مذبحة فردن (Verden) المعروفة سنة ٧٨٢ م .

وكانت الأندلس تموج بالعصب من قيس ويمن ومن عرب وبربر
ومن مسلمين ونصارى ، وكانت هذه الأضداد في حروب وكفاح
مذ خاض طارق مخاضة الفتح . وصار عبد الرحمن في حيرة ، وكان
عليه أن يقطع رءوس الفتنة قبل أن تضيع رءوس كثيرة لم تلبس
لباس الفتنة . وكان عليه أن يتعقب الصليب ، وهو يأوى الى
جبال جليقية البعيدة . كما كان عليه أن يكسر شوكة شارلمان ومن
شايعة من خوان المسلمين مرة ومرة . وكان عليه أن يجابه معاصرة
الكبير أبا جعفر المنصور ، وهو قابض في بغداد يدبر كيف يرمى صقر
قريش ، حتى يكسر جناحه ويهوى من عليائه . . وكان عليه أخيراً
أن يجابه غدر أصدقائه وغدر أقربائه ، وفي ذلك حديث يطول .

كان عبد الرحمن رجل الله المخلص لدينه المجاهد في سبيله ،
ونراه في نقش خاتمه « بالله يثق عبد الرحمن وبه يعتصم »
و « عبد الرحمن بقضاء الله راض » ونراه يؤام الناس في الصلاة ،
ويحسن الى رجال الدين ويصلهم ، وهو الذي بدأ بنيان المسجد
الأموي الكبير . ودفعه ما طبع عليه من دين وتقوى الى أن يقدم
ولده هشاماً على ولده سليمان وهو الابن البكر ، لأنه كان كما يذكر
المؤرخون « أحسن الناس وجهاً وأشرفهم نفساً ، الكامل المروءة
الحاكم بالكتاب والسنة ، الذي أخذ الزكاة على حلها ووضعها في
حقها ، لم يعرف عنه هفوة في حدائته ولا زلة في صباه » .

ونرى عبد الرحمن يعشق الجهاد ، فقد دفع الى أربونة ، وهو
لا يزال في أول نضاله كتيبة من جنوده ، لترد عنها عدوان الفرنج ،
مع حاجته الى هؤلاء في ردع الخوارج وأهل الفتنة . ونراه حين
غزا سرقسطة يتحول الى الجلالقة ويشخن في بلادهم ، ولو قدر له
أن يعيش أطول مما عاش ، فلربما جعل إسبانيا كلها ، وأقد خلصت
لدين الله الحق . ولكن عبد الرحمن مع حبه للجهاد لم يك قاسياً
مع النصارى ، فقد أبقى بأيديهم بيعهم وكنائسهم ولم يفعل معهم

ما فعله الملوك الكاثوليك (١) مع المسلمين بعد زوال ملكهم ، وسمع لهم بعقد مجالسهم الدينية كيف شاءوا وحيث يشاءون ، من ذلك مجمع اشبيلية النصراني سنة ٧٨٢ م وقد اتاه أساقفة الاسبان من كل حذب وصوب ، ونرى رذريق البيلطلي (Rudericus Toletanus) وهو مؤرخ اسباني مسيحي قريب الى عصر عبد الرحمن يصف أمير المسلمين بأنه عادل ، وكفتنا مقالة رذريق .

وكان عبد الرحمن أمويا ، وهذا معناه الولاء لعشيرته وبني أبيه ، وها هو ذا قد اتاه بنو مروان من أصقاع الأرض يخطبون عنده الملجأ والملاذ . وكان أمير بني أمية وفيه لأهله ، وقد أثر عنه انه قال : « أعظم ما أنعم الله تعالى به علي بعد تمكني من هذا الأمر ، القدرة على ايواء من يصل الى من أقاربي والتوسع في الاحسان اليهم ، وكبرى في أعينهم وأسماعهم ونفوسهم ، بما يمنحني الله تعالى من هذا السلطان الذي لا منة علي فيه لأحد غيره » .

مدحه عبد الملك بن عمر بن مروان وكان يقرض الشعر :

فياز منّا أودى بأهلى ومعشرى
لقد صرت في أحشائنا لاذعا جمرا
ويزداد دهر السوء غشا وظلما
كأن على شمس الضحى دوننا سترا
الى أن بدا من آل مروان مقمر
أضياء لنا من بعد ظلمته الدهرا
هجان (٢) أصيل الرأي ندب (٢) مهذب
أقام لنا ملكا وشهد لنا أورا

(١) فرديناند (Ferdinand) وإيزابلا (Isabella) وفيليب الثاني (Phillip II)

سمرهم .

(٢) أى هجين وهو من كان أبوه عربيا وأمه من الموالى (أجنبية) . .

(٣) السيد المقدم في الامور العظيمة .

وأثبت آمالا وأثبت نعممة
وجئنا فالفينا الكرامة والبسرا
أنال وأغنى منعمنا متفضلا
وأصفى لنا مأمول أنسائه صهرا
فنحن حوالية النجوم تجمعت
الى البدر حتى صرن من حوله حجرا

وحين تأمر عليه ابن أخيه المغيرة بن الوليد مع هذيل بن الصميل
بطش به عبد الرحمن ، ولم يكن يستطيع غير هذا لكنه تألم وقال :
« ما عجبى الا من هؤلاء القوم ، سعيينا فيما يضجعهم فى مهاد الأمن
والنعمة ، وخاطرنا بحياتنا ، حتى اذا بلغنا منه الى مطلوبنا ويسر
الله تعالى أسبابه ، أقبلوا علينا بالسيوف . ولما آويناهم وشاركناهم
فيما أفردنا الله تعالى به حتى أمنوا ، وردت عليهم أخلاف النعم (١) ،
هزوا اعطافهم وشمخوا بأنافهم وسموا الى العظمى فنازعونا فيما
منحه الله تعالى ، فخذلهم بكفرهم النعم ، اذ أطلعنا على عوراتهم ،
فعاجلناهم قبل ان يعاجلونا ، وأدى ذلك الى ان ساء ظننا فى البرىء
منهم ، وساء أيضا ظنه فينا ، وصار يتوقع من تغيرنا عليه ما نتوقع
فحن منه » .

وعبد الرحمن هو الوفى لأصدقائه الواصل لهم المقدم أياهم ،
تراه حين استقرت اليه الأمور يجعلهم السادة ، ولكنه حين خرجوا
عليه لم يجعلهم العبيد ، نرى ضروبا من ذلك فى بدر وأبى عثمان
وعبد الله بن خالد وتمام بن علقمة وحيوة بن ملامس وغيرهم كثيرين .
وهو يقول فى صاحبه الأخير وكان من أقربهم الى قلبه ، ثم خرج
عليه مرة فصفح عنه ، وخرج عليه أخرى فقير صفحه .

فلا خير فى الدنيا ولا فى نعيمها
اذا غاب عنهما حيوة بن ملامس

(١) النعم الكثيرة .

أخو السيف قارى الضيف (١) حقا يراهما

عليه ونساقى الضسيم عن كل بائس

وأنشأ عبد الرحمن دولته ، وكان مثله في ذلك معاوية
ابن أبى سفيان ، ولكن عبد الرحمن أنشأ دولته في ظروف أسوأ
من ظروف هذا الأموى الكبير ، فقد هلك على بن أبى طالب وكان
العقبة الكأداء في سبيل معاوية ، أما عبد الرحمن فقد ظل أعداؤه
يمشون في هذه الدنيا حتى سنتين قبل رفعه . وقد شهد بذلك
أبو جعفر المنصور ، ورأيناه في بعض مجالسه يحدث أصحابه :
« أخبرونى من صقر قريش من الملوك ؟ » قالوا : « ذاك
أمير المؤمنين راض الملوك وسكن الزلازل وأباد الأعداء وحسم
الأدواء » (٢) قال : « ما قلتم شيئا » قالوا : « فمعاوية » قال :
« لا » قالوا : « فعبد الملك بن مروان » قال : « ما قلتم شيئا » .
إقالوا : « يا أمير المؤمنين . فمن هو ؟ ؟ » قال : « صقر قريش
عبد الرحمن بن معاوية الذى عبر البحر وقطع القفر ، ودخل بلدا
أعجميا منفردا بنفسه ، فمصر الأمصار (٣) وجند الأجناد ودهون
الدواوين ، وأقام ملكا عظيما بعد انقطاعه بحسن تديره وشدة
شكيمته . ان معاوية نهض بمركب حمله عليه عمر وعثمان وذللا له
صعبه ، وعبد الملك ببيعة أبرم عقدها ، وأمير المؤمنين بطلب عشرته
 واجتماع شيعته ، وعبد الرحمن منفرد بثغره مؤيد برأيه مستصحب
لعزمه ، فوطد الخلافة بالأندلس ، وافتتح الثغور وقتل المارقين ،
وأذل الجبابرة الثائرين » .

صدق والله أبو جعفر وصدق أيضا أحمد شوقى في موشحته
الطويلة التى يقول فيها :

(١) أى الذى يكرم ضيوفه .

(٢) جمع داء وحسم الأدواء أى عالجها .

(٣) الولايات الإسلامية .

أيها اليائس مت قبل الممات ، أو إذا شئت حياة فالرجا
لا يضق ذرعك عند الأزمات . ان هي اشتدت وأميل فرجا
ذلك الداخل لاقى مظلومات لم يكن يأمل فيها مخرجاً

وعبد الرحمن هو القائد المحنك والجندي الشجاع في ذات
الوقت ، ورث عن أجداده تلك الصفة العتيدة التي تبدو أظهر
ما تبدو في معاوية ، وهي الدهاء والمكر وسعة الحيلة . من ذلك
ما جرى بينه وبين يوسف الفهري على المسارة ، حين أوهمه
بميله الى الصلح وكانت تلك خدعة . ونراه حين اشتدت الحرب
بينه وبين يوسف ورأى شدة مقاساة أصحابه فيقول لهم « هذا
اليوم هو رأس ما يبني عليه ، اما ذل الدهر واما عز الدهر ،
فاصبروا ساعة فيما لا تشتهون تريحون بها بقية أعمساركم
فيما تشتهون » ونراه حين ركب البغل ، وحين كسر أجفان
السيوف ، وحين استمال البربر في بعض حروبه ضد أصدقائه ،
وكذلك حين سكت عندما وصلته مقالة أبي الصباح ولكن الى وقت
معلوم .

وعبد الرحمن قد اجتمع اليه كل ما يلزم الحاكم المستنير من
صفات ، وهو في هذا كقرينه أبي جعفر ، يقول ابن حيان وهو مؤرخ
الأندلس الكبير : - « كان عبد الرحمن راجح العلم واسع العلم ،
ثاقب الفهم كثير الحذر نافذ العزم بريئاً من العجز سريع النهضة
متصل الحركة ، لا يخلد الى راحة ولا يسكن الى دعة ، ولا يكل
الأمور الى غيره ثم لا ينفرد في ابرامها برأيه ، شجاعاً مقداماً بعيد
الغور شديد الحدة قليل الطمأنينة ، بليغاً مفوها شاعراً محسنًا ،
سمحاً سخياً طلق اللسان » .

وكان عبد الرحمن مثل عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز
رضي الله عنهما ، فكان يعقد الى العامة ويسمع منهم وينظر بنفسه
فيما بينهم ، ويتوصل اليه من اراده من الناس ، فيصل الضعيف

منهم الى رفع ظلامته اليه دون مشقة — وكان من عاداته أن يأكل من أصحابه من أدرك وقت طعامه ومن وأفق ذلك من طلاب الحوائج أكل معه ، كما كان يحضر الجنائز ويصلى عليها ، ويصلى بالناس اذا كان حاضرا الجمع والأعياد ، ويخطب على المنابر ويعود المرضى ، ويكثر مباشرة الناس والمشى بينهم ولكن ذلك لم يبلغ به حد الاسفاف ، فلم يخرج عن مقام الأمير وما يلزم ذلك من هيبة ووقار ، وحين تقدمت به السن وزادت عليه مشاغل الحياة كان يوكل بذلك ولده هشاما (١) .

وورث عبد الرحمن عن أسرته تلك الصفة العجيبة التي استمرت أجيالا دون أن تموت ، وهي أن تكون للحاكم بين رعيته على قربه منهم هيئة وصسولة ، ولكنه مع ذلك يكتشف المواهب واذا كان ابن حيان يستغرب ذلك الشبه العظيم بين عبد الرحمن وأبى جعفر ، فان عبد الرحمن يخالف خصمه في عدة أمور ، فيقدر ما كان أبو جعفر بخيلا شحيحا بين الناس وطلاب الحوائج كان عبد الرحمن سمحا كريما معطاء ، ولكنه كان يخجل من اراقة ماء الوجه في اسفاف .

وكان عبد الرحمن سياسيا صارت اليه القدرة على اصطناع الأعداء في وقت غدر به الأصدقاء ، وذلك يرجع الى مروءة تسكن شخصه ورحمة يموج بها قواده . حدث أن ثار عليه ثائر ففراه وظفر به ، فبينما هو منصرف وقد حمل الثائر على بغل مكبلا اذ نظر اليه وتحتة فرس ، فقنع رأس البغل وقال : « يا بغل ماذا تحمل من الشقاق والنفاق ؟ » قال الثائر : « يا فرس ماذا تحمل من العفو والرحمة ؟ » فقال الأمير : « والله لا تذوق موتا على يدي أبدا » وعفا عنه !! .

كان عبد الرحمن من هذا النفر من الشعراء الفرسان ، وتلك

(١) نفح الطيب (بتصرف) .

ظاهرة في بني أمية تميزهم عن بني هاشم ، فقد لا نجد بين الآخرين من قال شعرا ، رغم أن عليا رضي الله عنه كان له بعض النثر البديع الذي جمع فيما بعد وبخاصة عند الشريف الرضي ، وجدنا في بني أمية يزيد بن معاوية وكان شاعرا مبدعا يتخلل شعره الترف ، كما كان الوليد بن يزيد بن عبد الملك شاعرا ولكن شعره كان يتميز بالمجانة والعهار ، وبعد عصر عبد الرحمن كانت ولادة بنت الخليفة المستكفي الأموي أدبية ذاع صيتها في دنيا الشعر . أما فتانا فكان شاعرا ليبيّا ضرب في الشعر بسهم وافر ، ورغم أن الذي وصل إلينا من شعره قليل ، فانه أن دل فانما يدل على شاعرية عالية وحس مرهف . ويقول وهو يخاطب معاهده بالشام وقد انتأت عنه في أبيات أرسلها إلى أخته :

أيهـا الراكب الميم أرضى	أقر من بعضى السلام لبعضى
أن جسمى كما علمت بأرض	وفـؤادى ومالكـيه بأرض
قدر البين بيننا فافترقنا	وطوى البين عن جفونى غمضى
قد قضى الله بالفراق علينا	فعى باجتماعنا سوف يقضى

وإذا كنا نسمع في شعر عبد الرحمن تلك الرنة من الحزن العميق والحنين إلى بلاد الشام ، فاننا نرى في شعره أيضا تلك النعرة التي اعتدناها من الأسرة الأموية . جاءه بعض أبناء عمومته فأكرمهم ووصلهم ، واستقل نفر منهم ذلك وقيل أن حظه أعانه في ملك الأندلس وفي رواية أخرى أن بعضهم أشاد بموقف الغمر ابن يزيد بن عبد الملك بمجلس عبد الله بن علي ساعة قتله فقال عبد الرحمن :

شتان من قام ذا امتعـاض	فمر ما قال واضـمـحـلا
ومن غدا مصلتا لغـمـرم	مجردا للعداة نصـلا (١)
فجاب قفرا وشق بحرا	ولم يكن في الأنـام كلا

فبز ملكا وشيئا عيزا
وجند الجند حين أودى
ثم دعا أهله جميعا
فجاء هذا طريد جنوع
فقال أمنا ونال شسبعا
ألم يكن حق ذا غلى ذا
ومنيزا للخطاب فصلا
ومصر المصر حنين أجلى
حيث انتأوا (١) أن هلم أهلا
شديد روع يخاف قتلا
ونال منالا ونال أهلا
أعظم من منعم ومنولى

عبد الرحمن بن معاوية هو صدر الدولة الأموية في بلاد
الأندلس ، وهو الذى أسسها ووضع دعائمها ، وقضى ثلث قرن
في صراع مع المقادير ، لتحقيق ما ارتآه وانتواه . وهو في ذلك جعلها
على نسق دولة أجداده في بلاد المشرق دولة عربية في بنائها بسيطة
التركيب ؛ لم يدخل عليها هذا التعقيد الذى صار عند بنى العباس
في بغداد . فقد أنشأ الحجابة ، ولكنه استعاض عن الوزارة ببعض
شيوخه وأعوانه ، ورغم أنه كان يتولى قيادة الجيوش في الوقائع
الهامة والحروب ، إلا أنه جعل عليها نفرا من مواليه وصنحبه
الأوفياء ، كما جعل على الكور والثغور جماعة ممن اختص بهم من
أصدقائه وأهل بيته الوافدين عليه .

وكان الجيش في عصر عبد الرحمن يجاوز المائة ألف ، عدا
حرسه الخاص وقوامه أربعون ألفا من البربر (٢) ، كما مال إلى اقتناء
العبيد والموالي واستمد الكثير من بربر العدو الذين لم تكن قد
أصابتهم عدوى الثورة ضد الأمير ، كما اتجه إلى إنشاء أسطول
كبير في أواخر أيامه ، ولربما فعل ذلك حين أزمع الرحيل إلى الشرق
وأحياء دولة بنى أمية ، فشاد قواعد لبناء السفن في بعض الثغور ،
مثل طركونة وطرطوشة وقرطاجنة وأشبيلية والمرية .

ولما استتب له الأمر في أخريات حياته اتجه إلى بناء تلك

(١) أى حيث ابتعدوا .

(٢) ربما كان في تقدير عدد حراسه من البربر بعض المبالغة .

الحضارة التي أينعت وترعرعت طوال الحقبة الواسعة من تاريخ
الأندلس ، فأنشأ بقرطبة دارا للسكة تضرب فيها النقود على نحو
ما كانت عليه في دمشق أيام بنى أمية وزنا ونقشا ، كما اهتم بالبريد ،
وجعل له محطات تختص به ، وأصلح طرق المواصلات التي كانت
مزدهرة في عصر الإمبراطورية الرومانية .

ولطالما كان يعاوده الحنين الى بلاد الشام ملعب الطفولة ومرتع
الصبا فبدأ ببناء السور الكبير على قرطبة ، وأنشأ منية الرصافة
الضاحية الجميلة بأحواز قرطبة الى الشمال الغربى منها ، وجعل
فيها قصرا ضخما فخيفا تحيط به الحسدائق الزاهرة ، وأودعها
ما اجتلبه من الشام من النوى المختارة والحبوب الغريبة ، حتى
نمت بيمن الجذ وحسن التريية في المدة القريبة أشجار مقيمة ، أثمرت
بفرائب الفواكه التي انتشرت عما قليل بأرض الأندلس ، فاعترف
بفضلها على أنواعها (١) .

ولكن أشرف ما ابتناه عبد الرحمن في بلاد الأندلس هو المسجد
الجامع الكبير بقرطبة ، وكان موضعه كنيسة قوطية قديمة ،
أشترها عبد الرحمن واجتلب اليها الأعمدة الفخمة والرخام المنقوش
بالذهب واللازورد ، حتى بلغ جملة ما أنفقه على المسجد مائة ألف .
ولكنه لم يقدر أن يتم بناءه في عصره ، وإنما كان ذلك من نصيب
ولده هشام وكان معروفا بالتقوى والصلاح ، وبلغ المسجد أعظم
فترات حياته أيام أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر .

يقول أحد الشعراء (٢) في مدح عبد الرحمن (الداخل) ووصف
الجامع :

(١) عن المقرئ (بتصرف) .

(٢) هو دحية بن محمد البلوى .

وأنفق في دين الله وجهه
ثمانين ألفاً من لجين وعسجد (١)
توزعها في مسجد أسه التقى
ومنهجه دين النبي محمد
تري الذهب الناري فوق سموكه (٢)
يلوح كبرق العارض (٣) المتوقد

بدأ عبد الرحمن ملك بني أمية في الأندلس ، واستمرت دولته
الى ما بعد المائة الرابعة من هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم .
وقد ورثت هذه الدولة عن الدولة الأولى في المشرق كل شيء من
جهاد الكفار ونصرة الدين واعلاء راية المسلمين ، وشغلت الفترة
الزاهرة من تاريخ الأندلس سياسة وبعض مناحيه حضارة .
ولم تطمع أمم الفرنج في أندلس الاسلام الا بعد زوال دولة بني أمية،
ولم تبدأ حركة الريكونكويستا (٤) (La Reconquista) أو حركة
استرداد الأراضي النصرانية عند الاسبان الا منذ هلاك هشام
الخامس المعتمد بالله (٥) .

ومن سسلالة عبد الرحمن الأول نرى عبد الرحمن الثالث
الناصر لدين الله على رأس المائة الرابعة ، وهو الذي أضحي خليفة
للمسلمين وأميراً للمؤمنين لما تداعت دولة بني العباس وحكمها
الترك والديلم . وعبد الرحمن هذا هو الذي دام حكمه خمسين
عاماً ، بلغت الأندلس أثناءها كل ما أملت من عزة وسؤدد ورفاهة ،

(١) الفضة والذهب .

(٢) عقود المسجد .

(٣) السحاب .

(٤) من الخطأ ما يزعمه بعض كتاب الفرنج من ان معركة كوفادونجا تعد

بداية حركة الريكونكويستا .

(٥) أو المعتمد وهو آخر خلفاء بني أمية بالأندلس .

وناشده ملوك الأرض صداقته ، وفي عهده ابتليت الزهراء وهى من هجائب الدنيا ، ومفخرة للعرب ودليل على عظمة الاسلام .

ومن رجال تلك الدولة الملك الكريم المنصور بالله بن أبى عامر رحمه الله ، وهو ليس أمويا بالدم ، وانما هو يمانى عاش فى كنف بنى أمية حتى صارت اليه أمورهم ، فتوغل فى بلاد الجلالقة ، واستعاد الأراضى التى خلصت لهم ابان الفتنة الكبرى قبل دخول الداخل . وعاد بالنصارى يحملون نفائسهم وذخائرهم وصلبانهم وأبواب كنائسهم وأجراسها من الجبال البعيدة فى قاصية جليقية الى قرطبة وهى حاضرة الخلافة . وظل العدو يتلقى الضربة بعد الضربة حتى ألقى سلاحه ومال الى أن يصالح ويهادن .

وعبد الرحمن هو الذى مهد للعلم والحضارة بالأندلس ، ولولاه لأكلت البلاد الفتنة وطمعت أمم الفرنج فى بلاد الاسلام ، واذا نحن قدرنا ما كانت عليه أوروبا فى ذلك الحين من جهالة مستمرة وظلام سحيق عرفنا جميعا مقدار ما كان يصيب العالم وحضارتنا الراهنة لو أذعننا الأندلس لسنابك الفرنج . فعبد الرحمن هذا سبب فى عظمة ابن زيدون وابن عباد وابن خفاجة وابن قزمان وهو سبب فى عظمة ابن رشد وابن زهر وابن طفيل وابن البيطار ، وعبد الرحمن يعد ممن خططوا للزهراء والحمراء وجنة العريف ، ويعد أيضا ممن ساعدوا على وصول الأسبان الى أمريكا والصين ، قد سبقوا فى ذلك أمم أوروبا وعبد الرحمن والأندلس حديثان لو تكلمنا لطال المقام والحيز يسير .

رحمه الله ٢

عبادة عبد الرحمن كحيلة

المراجع الهامة

(١) المراجع القديمة :

- ابن الاثير : أبو الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني الجزري
- ١ - الكامل في التاريخ . الجزءان الرابع والخامس
أخبار مجموعة .
 - ٢ - في فتح الأندلس وذكر أمرائها رحمهم الله والحروب
الواقعة بها بينهم .
- الحميري : أبو عبد الله محمد بن عبد الله
- ٣ - الروض المعطار في خبر الأقطار .
- ابن خلدون : ولي الدين عبد الرحمن بن محمد
الحضرمي .
- ٤ - العبر وديوان المبتدأ والخبر . المقدمة والجزءان
الثالث والرابع
- المضبي : أحمد بن يحيى
- ٥ - بغية الملتبس في تاريخ رجال أهل الأندلس
الطبري : أبو جعفر محمد بن جرير
 - ٦ - تاريخ الرسل والأنبياء والملوك والخلفاء . الجزءان
الخامس والسادس
- ابن الطقطقي : محمد بن علي بن طباطبا .

- ٧ - الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الاسلاميه
ابن عبد الحكم : أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله
القرشى
- ٨ - فتوح مصر والمغرب .
ابن عبد ربه : شهاب الدين أحمد بن محمد الأندلسى
- ٩ - العقد الفريد : الجزء الثالث
ابن عذارى : أبو محمد عبد الله بن محمد المراكشى
- ١٠ - البيان المغرب فى أخبار الغرب : الجزءان الأول والثانى
أبو الفداء : الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل بن على
صاحب حماة
- ١١ - المختصر فى أخبار البشر : الجزء الأول
ابن قتيبة : أبو محمد عبد الله بن مسلم
- ١٢ - الامامة والسياسة (منسوب اليه) الجزء الثانى
ابن القوطية : أبو بكر القرطبى
- ١٣ - تاريخ افتتاح الأندلس
ابن كثير : عماد الدين أبو الفدا اسماعيل بن عمر
ابن كثير
- ١٤ - البداية والنهاية فى التاريخ : الجزء التاسع
المراكشى : أبو محمد محبى الدين عبد الواحد بن على
التميمى
- ١٥ - المعجب فى تلخيص أخبار المغرب .
المسعودى : أبو الحسن على بن الحسين بن على

- ١٦ - مروج الذهب ومعادن الجوهري : الجزء الثالث
المقرئ : أبو العباس أحمد بن محمد التلمساني
- ١٧ - نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب : الأجزاء الأولى
والثاني والرابع والسادس .

(ب) المراجع الحديثة :

- أدهم : علي .
- ١ - صقر قریش
أرسلان : الأمير شکیب
- ٢ - تاریخ غزوات العرب فی فرنسا وسویسرا وإيطاليا
وجزائر البحر المتوسط
- ٣ - الحلل السندسية فی الأخبار والآثار الأندلسية :
الجزءان الأول والثاني
- Buckeler : F. W.
- ٤ - Harun'1 Rashid and Charles the Great
- Pirenne : Henri.
- ٥ - Mohammed and Charlemagne.
- Gibbon : Sir Edward.
- ٦ - History of Decline and Fall of the Roman Empire Vol. 1V,V.
- Dozy : Reinhart.
- ٧ - History of the Moslems in Spain Vol. 1
- ديفز : ه . و . كارلس
- ٨ - أوروبا فی العصور الوسطی . ترجمة عبد الحمید جمادی
محمود

- ٩ - شارلمان : ترجمة السيد الباز العرينى
ديورانت : ول . ترجمة محمد بدران
- ١٠ - قصة الحضارة . المجلد الرابع (عصر الايمان) الجزء
الأول
- Scott : S. P.
Moorish Empire in Europe Vol. 1. - ١١
- سيديو . ل . ا . ترجمة محمد عادل زعيتر .
- ١٢ - تاريخ العرب العام .
- Sayers : Dorothy L.
The Song of Roland. - ١٣
- Chapman : Charles E.
A History of Spain. - ١٤
- شوقى : أحمد .
- ١٥ - ديوان
- العبادى : عبد الحميد .
- ١٦ - المجمل فى تاريخ الأندلس .
- عنان : محمد عبد الله .
- ١٧ - تراجم اسلامية شرقية وأندلسية .
- ١٨ - دولة الاسلام فى الأندلس . العصر الأول . القسم
الأول .
- The Cambridge :
Medieval History. Vol. 1, II. - ١٩

Conde : J. A.

Dominion of the Arabs in Spain Vol. 1.

- ٢٠ - لوڤون : غوستاف . ترجمة محمد عادل زعيتر .
- ٢١ - حضارة العرب .
- لين بول : ستانلى . ترجمة على الجارم .
- ٢٢ - العرب فى اسبانيا .
- مؤنس : حسين .
- ٢٣ - فجر الأندلس .
- النصولى : آئيس زكريا .
- ٢٤ - الدولة الأموية فى قرطبة . الجزء الأول .
- هازارد . هارى . ترجمة ابراهيم زكى خورشيد .
- مراجعة محمد مصطفى زيادة .
- ٢٥ - أطلس التاريخ الاسلامى .

فهرس

الصفحة	
٣	تقديم
٧	مقدمة
١١	الفصل الأول : خريف أمية
٢١	الفصل الثاني : الفتى ... والطريق
٣١	الفصل الثالث : الاندلس ... بين الغسق والفلق
٤٣	الفصل الرابع : الجزيرة العاصية
٥٥	الفصل الخامس : الداخل
٦٥	الفصل السادس : شروق أمية
٧٩	الفصل السابع : عشرات الطريق
٨٧	الفصل الثامن : عبد الرحمن ... وشارلمان
١٠٥	الفصل التاسع : آخر الطريق
١١٢	الفصل العاشر : تقرير ... وتقدير
١٢٧	المراجع الهامة

صدر من سلسلة أعلام العرب

المؤلف	اسم الكتاب
عباس العقاد	١ - محمد عبده
على أدهم	٢ - المعتمد بن عباد
د . زكى نجيب محمود	٣ - جابر بن حيان
د . على عبد الواحد وافي	٤ - عبد الرحمن بن خلدون
د . محمد يوسف موسى	٥ - ابن تيمية
ابراهيم الابيارى	٦ - معاوية
د . محمود أحمد الحفنى	٧ - سيد درويش
د . أحمد بدوى	٨ - عبد القاهر الجرجاني
د . على الحديدى	٩ - عبد الله النديم
د . ضياء الدين الرئيس	١٠ - عبد الملك بن مروان
أمين الخولى	١١ - مالك
د . عبد اللطيف حمزه	١٢ - القلقشندى
د . أحمد محمد الحوفى	١٣ - الطبرى
د . سعيد عبد الفتاح عاشور	١٤ - الظاهر بيبرس
د . محمد مصطفى حلمى	١٥ - ابن الفارض
د . على حسنى الخربوطلى	١٦ - المختار الثقفى
د . سيدة اسماعيل الكاشف	١٧ - الوليد بن عبد الملك
د . أحمد كمال زكى	١٨ - الأصمعى
صبرى أبو المجد	١٩ - زكريا أحمد
د . ماهر حسن فهمى	٢٠ - قاسم أمين
أحمد الشرباصى	٢١ - شكيب أرسلان
د . عبد الحميد سند الجندى	٢٢ - ابن قتيبة
محمد عجاج الخطيب	٢٣ - أبو هريرة

اسم الكتاب	المؤلف
٢٤ - عبد العزيز البشري	د . جمال الدين الرمادي
٢٥ - الخنساء	محمد جابر الحيني
٢٦ - الكندي	د . أحمد فؤاد الاهواني
٢٧ - صاحب بن عباد	د . بدوي طبانه
٢٨ - الناصر بن قلاوون	د . محمد عبد العزيز مرزوق
٢٩ - أحمد زكي	أنور الجندى
٣٠ - حسان بن ثابت	د . سيد حنفي حسنين
٣١ - المثنى بن حارثة الشيباني	عقيد : محمد فرج
٣٢ - مظفر الدين كوكبوري	عبد القادر أحمد
٣٣ - رشيد رضا	د . ابراهيم أحمد العدوي
٣٤ - اسحاق الموصلي	د . محمود أحمد الحفني
٣٥ - أبو حيان التوحيدى	د . زكريا ابراهيم
٣٦ - ابن المعتز العباسي	د . أحمد كمال زكي
٣٧ - الزهاوي	د . ماهر حسن فهمي
٣٨ - أبو العلاء المعري	د . عائشة عبد الرحمن
٣٩ - أحمد لطفى السيد	د . حسين فوزي النجار
٤٠ - الجويني امام الحرمين	د . فوقية حسين
٤١ - صلاح الدين الايوبي	د . سعيد عبد الفتاح عاشور
٤٢ - عبد الله فكري	محمد عبد الفتى حسن
٤٣ - عبد الله بن الزبير	د . علي حسنى الخربوطلى
٤٤ - عبد العزيز جاويز	أنور الجندى
٤٥ - ابن رشيقي القيرواني	عبد الرؤوف مخلوف
٤٦ - محمد بن عبد الملك الزيات	محمود خالد الهجرسي
٤٧ - حنفي ناصف	محمود غنيم
٤٨ - أحمد بن طولون	د . سيدة اسماعيل كاشف
٤٩ - محمود حمدي الفلكي	أحمد سعيد الدمرداش
٥٠ - أحمد فارس الشدياق	محمد عبد الفتى حسن
٥١ - المهدي العباسي	د . علي حسنى الخربوطلى
٥٢ - الاشرف قانصوه الغوري	د . محمود رزق سليم

المؤلف	اسم الكتاب
د . حسين فوزى النجار	٥٢ - رفاة الطيطاوى
د . محمود أحمد الحفنى	٥٤ - زرياب
د . حسن أحمد محمود	٥٥ - الكندى « المؤرخ »
د . زكريا ابراهيم	٥٦ - ابن حزم الاتدلى
د . بول غليونجى	٥٧ - ابن النفيس
د . سعيد عبد الفتاح عاشور	٥٨ - السيد أحمد البدوى
د . محمد مصطفى هدارة	٥٩ - المأمون
محمد عبد الفنى حسن	٦٠ - المقبرى
عبد الرحمن الراقى	٦١ - جمال الدين الأفسهائى
د . أحمد كمال زكى	٦٢ - الجاحظ
د . أنور عبد العليم	٦٣ - ابن ماجه
د . ماهر حسن فهمى	٦٤ - محمد توفيق البكرى
د . على محمد الحديدى	٦٥ - محمود سامى البارودى
على عبد العظيم	٦٦ - ابن زيدون
د . عبد العزيز محمد الشناوى	٦٧ - عمر مكرم
د . ابراهيم أحمد العدوى	٦٨ - موسى بن نصير
د . عبد الحليم محمود	٦٩ - أبو الحسن الشاذلى
د . سيدة اسماعيل كاشف	٧٠ - عبد العزيز بن مروان
د . حسين فوزى النجار	٧١ - على مياوك
د . عبد الحليم محمود	٧٢ - أبو الحسن الشاذلى
د . على حسنى الخربوطلى	٧٣ - العزيز بالله الفاطمى
د . جمال الدين الشيال	٧٤ - أبو بكر الطرطوشى
د . حسين نصار	٧٥ - يونس بن حبيب
الأستاذ عبادة كحيله	٧٦ - صقر قريش

ملتزم التوزيع في الجمهورية العربية المتحدة وجميع أنحاء العالم الشركة القومية للتوزيع

مكتبات الشركة بالجمهورية العربية المتحدة

١ - فرع شريف	٣٦ شارع شريف	٤٠٠١٢ تلغراف القاهرة
٢ - فرع ٢٦ يوليو	١٩ شارع ٢٦ يوليو	٥٥٠٣٢ القاهرة
٣ - فرع ميدان عرابي	٥ ميدان عرابي	٤٣٣٨٣ القاهرة
٤ - فرع البندقيان	١٣ شارع محمد عز العرب	٢١١٨٧ القاهرة
٥ - فرع الجمهورية	٢٢ شارع الجمهورية	٩١٠٧٤٣ القاهرة
٦ - فرع عابدين	١٤ شارع الجمهورية	٩١٤٢٣٣ القاهرة
٧ - فرع العبي	ميدان المسح	القاهرة
٨ - فرع العيسية	٢ ميدان الحيزة	٨٩٨٣١١ القاهرة
٩ - فرع أسوان	السوق السياسي	٢٩٢٥ إسماعيل
١٠ - فرع الاسكندرية	١٩ ش سعد زغلول	٢٥٩٢٥ الاسكندرية
١١ - فرع طنطا	ميدان الساعة	٢٥٩٤ طنطا
١٢ - فرع المنصورة	ميدان الحطة	المنصورة
١٣ - فرع أسيوط	شارع الجمهورية	أسيوط

مراكز ووكلاء الشركة خارج الجمهورية العربية المتحدة

١ - مركز توزيع الجزائر	شارع بن مهيدي المرمي رقم ١١ مكرور	الجزائر
٢ - مركز توزيع لبنان	شارع دمشق	بيروت
٣ - مركز توزيع العراق	ميدان التحرير	بغداد
٤ - عبد الرحمن الكيالي	شارع ٢٩ مايو - دمشق	سوريا
٥ - الشركة العربية للتوزيع	من ١٠٠ رقم ٤٢٢٨ بيروت	لبنان
٦ - قاسم الزحبي	مكتبة النسي - بغداد	العراق
٧ - رجا العيسى	وكالة التوزيع - عمان	الأردن
٨ - عبد العزيز العيسى	مار التوزيع من ١٥٧١	الكويت
٩ - وكالة الطوط	الكويت	الكويت
١٠ - مكتب الوحدة العربية	شارع عمرو بن العاص - ليبيا	بنغازي
١١ - محمد بشير المرحلي	٥٣ شارع عمرو بن العاص	طرابلس
١٢ - الشركة الوطنية للتوزيع	شارع الرشيد	تونس
١٣ - وكالة الأهرام	المنطقة - الطنج المرمي	عند
١٤ - المكتبة الوطنية	من ١٢ و ١٤	البحرين
١٥ - مكتبة العربية	المكتبة الاممية من ٢٦١	الدوحة
١٦ - عبد الله حسين الرستماني	من ٢٧	دبي/عند
١٧ - المكتبة الحديثة	المكتبة الوطنية من ٢٥٥	مسقط
١٨ - أحمد سعيد حطاد	شارع عبد النسي ميدان التحرير	الكلاب
١٩ - مكتبة دار القلم	من ٨٢	مناء
٢٠ - علي إبراهيم بشير	من ١٧١٤	استرة
٢١ - عبد الله قاسم الحرزلي	من ٩٣٦	الديس الجبل
٢٢ - مكتبة ستر	من ٨٤٥	مقديشو
٢٣ - عبد الله عامر محمد	لقد	بياسا
٢٤ - مكتب توزيع المطبوعات العربية	٤٥ ش كندهار من ٢٢٠٥	لندن
٢٥ - المكتب التجاري الشرق	من ١٥٥ رقم ١٥٥	سفالورة
٢٦ - مكتبة مصر	مكتبة القيوم من ٤٨٠	الغزلوم
٢٧ - مكتبة القجر	مكتبة ذبيرة من ٢٤	واقي مدني
٢٨ - ذكي جرجس بطيوس	المكتبة الوطنية من ٢١٥	الغزلوم
٢٩ - ابراهيم عبد القيوم	من ٤٤	بور سودن
٣٠ - عوض الله مجذوب دبروة		عبيدة
٣١ - عيسى عبد الله		واقي مدني
٣٢ - مصطفى صالح		كويتي

أسعار البيع للجمهور من الدول العربية

سوريا ١٠٠ قرش سوري - لبنان ١٠٠ قرش لبناني - الأردن ١٠٠ فلس - العراق ١٠٠ فلس -
الكويت ١٢٠ فلس - السودان ١٠٠ مليم - ليبيا ١٠٠ مليم - قطر ١٥٠ درهم - البحرين ١٥٠ فلس -
عند ٢٠٠ سنت - اديس ابابا ١٠٠ سنت - أسرة ١٠٠ سنت - الجزائر ١٥٠ سنت